## الجزء الثالث

# النظرة المسيحية إلى العالم

تتركز مهمتنا المقبلة على فهم منظومة الإيمان المسيحية. فأي استحضار وجيز لتاريخنا الثقافي والفكري لا بد له من مقاربة هذه المهمة بعناية؛ لأن المسيحية تولت رئاسة الثقافة الغربية خلال الجزء الأكبر من وجودها، ليس فقط حاملة حافزها الروحي المركزي على امتداد ألفيتين كاملتين، بل ومؤثِّرة في تطورها الفلسفي والعلمي، وصولاً إلى عصري النهضة، فالتنوير. حتى الآن، مازالت النظرة المسيحية إلى العالم تمارس، بصيغ أقل وضوحاً، ولكن ليست أقل أهمية، تأثيراً في -بل وتطغى بالفعل على- الروح الثقافية الغربية، حتى حين تكون الأخيرة صارخة العلمانية في مواقفها.

من المتعذر الآن تأكيد ما صدر عن يسوع الناصري التاريخي بالذات من قول، وفعل، ومعتقد بدقة. لم يكتب يسوع شيئاً للأجيال المقبلة، ومثله في هذا مثل سقراط. من المسلم به نسبياً استناداً إلى الدراسات التاريخية والتأويلات النصية أنه وعظ، في إطار التراث الديني اليهودي، داعياً إلى التوبة انتظاراً لمجيء مملكة الرب (أو ملكوت السماء) الوشيك، أنه رأى هذه المملكة البازغة حاضرة سلفاً في أقواله وأفعاله، وأنه تعرض، جراء هذه المزاعم، للإعدام على يد الوالي الروماني **بيلاطوس النبطي** نحو عام 30م. إن حشدًا من العناصر الرئيسة الأخرى لحياة يسوع التي تعد مقدسة في العقيدة المسيحية -قصة القيامة المسرحية، وجملة حكايات الإعجاز المختلفة، ووقوف يسوع على حقيقة الثالوث (الأب والابن والروح القدس)، واعتزامه تأسيس دين جديد- متعذر على الإثبات الحاسم، عبر الرجوع إلى الأدلة التاريخية والنصية.

إن الأسفـار أو الأناجيل الأربعة للعهد الجديـد لم تؤلف، وأسس العقيدة المسيحية لم تُرسخ من قبل أبناء وأحفاد أتباع يسوع المباشرين، وصولاً إلى صياغة بنيان إيماني متقن ومتنافر أحياناً، إلا بعد حلول النصف الثاني من القرن الأول. جاء هذا البنيان منطويـاً، ليس فقـط على وقائع حياة يسوع الباقية في الذاكرة، بل وعلى سلسلة طويلة متنوعـة الحلقات من السـير، والأساطير، والحكايـات والأقوال المأثـورة، من الرؤى والنبوءات اللاحقة، من التراتيل والصلوات، من المعتقدات الرؤيوية الكارثية (كما في سفر الرؤية) من متطلبات الكنيسة الفتية على صعيد المواعظ التعليمية، من النظائر المتمفصلة مع الكتب المقدسة العبرية، مع جملة التأثيرات الأخرى اليهودية، اليونانية، واللاأدرية، ومن اللاهوت والنظرة التاريخية الخلاصيين - موحدة جميعاً عبر التزام مؤلفـي الأناجيـل الإيمانية بالدين الجديـد. أما مدى النجاح الـذي بلغه هذا المجمع النهائـي في عكـس الوقائع والتعاليـم الفعلية لحياة يسـوع فيبقى إشكاليـاً. إن أقدم الوثائق المسيحية الباقية هي رسائل بولس الذي لم يلتقِ بيسوع قط. يبقى يسوع الذي بـات التاريخ يعرفـه، إذًا، هو يسوع المصـوَّر -المتذكَّر، المعاد تركيبـه، المفسَّر، الملمَّع، المتخيَّـل بخيال خصب- في العهد الجديد مـن قبل كتاب عاشوا بعد جيل أو اثنين من المدة التي تغطيها رواياتهم، وعطفوا تأليفها على تلاميذ يسوع المباشرين الأصليين.

حتى هذه الكتابات اختيرت تدريجياً، بوصفها آيات وحي حقيقية صادرة عن الرب من قبل التراتبية الكنسية المبكرة من كتلة أكبر من المواد التي كان بعضها (عموماً مؤلفة في أوقات لاحقة) يقدم وجهات نظر مختلفة جذرياً عن الأحداث المطروحة للمناقشة. والكنيسـة الأرثوذكسية التي جعلت هذه الأحـكام ذات الأهمية الحاسمة بالنسبة إلى التشكيـل اللاحق للمنظومة الإيمانية المسيحية عدت نفسها مرجعية مؤسسة مع أوائل الحواريين والتلاميذ ومكرسـة سماوياً ودينياً من قبل الكتاب المقدس. كانت الكنيسة ممثلـة الله على الأرضـ، مؤسسة مقدسة من شأن تراثها المتواصـل أن يشكل المفسِّر الحصـري لوحـي الله الموجه إلى الإنسانية. ومع الـبروز التدريجي للكنيسة، بوصفها البنيـان والنفوذ المهيمنين في الديانـة المسيحية المبكرة، جرى اعتمـاد الكتابات التي

باتت تؤلف العهد الجديد، مضافةً إلى الإنجيل العبري (العهد القديم «التوراة»)، بوصفها الأساس الشرعي والتشريعي الناظم للتراث المسيحي، وقد كانت هذه، عملياً، عنصراً حاسماً في تحديد معايير النظرة المسيحية المتطورة إلى العالم.

هذه الكتابات سوف تشكل، إذًا، أساساً لدراستنا الحالية التي تتناول الظاهرة المسيحية. ولأن موضوعنا هو طابع وديناميكية العلاقة بين النظرات العالمية السائدة والمهيمنة في الحضارة الغربية، فإن اهتمامنا هنا متركز على التراث المسيحي الذي بقي فارضاً نفوذه الثقافي على الغرب، منذ سقوط روما وحتى الحقبة الحديثة. ما كان الغرب المسيحي يرى أنه صحيح عن العالم وعن موقع البشر فيه هو اهتمامنا المحدد، وتلك النظرة العالمية كانت مستندة إلى قاعدة الوحي الكنسي المقدس، ثم جرى بالتدريج تعديلها، وتطويرها، وتوسيعها بفعل سلسلة مختلفة من العوامل اللاحقة في ظل الإشراف والإرشاد التسلطي للتقاليد الكنسية في المقام الأول. قد يبدو واقع قيام الكنيسة بترسيخ المرجعية الإلهية للنص الديني، وأن الأخير هو الذي تولى ترسيخ السلطة السماوية للكنيسة، واقعاً غير مباشر، غير أن ذلك التصديق المتبادل التكافلي الذي تأكد في العقيدة جراء الألفة الكنسية المستمرة، كان عملياً، ناظم عملية تشكل النظرة المسيحية. هذا التراث، بصيغته الإنجيلية التأسيسية من جهة وبتطوراته اللاحقة من جهة ثانية، هو، إذًا، موضوع بحثنا.

بداية، دعونا نوجه انتباهنا إلى ذلك التراث الذي خرجت المسيحية من رحمه، أعني تراث الإسرائيليين المنحدرين من إبراهيم وموسى، ذلك التراث المركز بكثافة، والصارم أخلاقياً، والغني دينياً.

## التوحيد اليهودي وتأليه التاريخ

في الرؤية العبرية يتشابك اللاهوت والتاريخ تشابكاً، لا انفصام له. أفعال الرب وأحداث التجارب الإنسانية تؤلف واقعاً واحداً، والسرد التوراتي للماضي العبري يكاد لا يهدف إلا إلى الكشف عن منطقه الإلهي، بدلاً من إعادة بناء سجل تاريخي مجدد. وكما في المسيحية، يتعذر تمييز الأسطورة عن الواقع بوضوح في التاريخ المبكر لليهودية.

ولكن من شأن نواة تاريخية محددة لفهم الذات اليهودية التقليدية أن تتجلى، بالرغم من أن تحريفات وإضافات توراتية لاحقة تحجب حقيقة انبثاق شعب معين في الشرق الأوسط القديم يؤمن بديانة توحيدية من رحم خلفية سابقة (خلفية ممتدة إلى الآباء إبراهيم، إسحاق، ويعقوب في العقود الأولى من القرن الثاني قبل الميلاد) مؤلفة من قبائل شبه بدوية، مع عناصر تعددية آلهة في عبادتها.

من المؤكد أن تاريخ الشعب العبري ورسالته وديانته لم تكن شبيهة بما لدى أي شعب آخر في العالم القديم. ففي زحمة عدد كبير من الأمم، الأقوى والمتقدمة أكثر في الغالب، راح العبرانيون يتصرفون، كما لو كانوا الشعب المختار، المميز كأمة من شأن تاريخها أن ينطوي على نتائج روحية ذات شأن بالنسبة إلى العالم كله. وفي قلب أرض كانت فيها قبائل وأمم محيطة تعبد حشداً من آلهة الطبيعة آمن **العبرانيون** بأنهم على علاقة فريدة ومباشرة مع **الرب** الواحد المطلق الموجود فوق جميع الكائنات الأخرى وخلفها، بوصفه خالقاً للعالم وموجهاً لدفة تاريخ هذا العالم. وبالفعل، فإن العبرانيين تصوروا تاريخهم مستمراً، وعاكساً لبدايات الخلق الأولى بالذات، حيث كان الرب قد صنع العالم، وعلى صورته هو، الإنسان. ومع العصيان الأول لآدم وحواء وطردهما من **جنة عدن**، كانت مسرحية نفي الإنسان الدرامية من السماء قد بدأت، تتجدد مرة بعد أخرى -هابيل وقابيل، نوح والطوفان، برج بابل- إلى أن تمت دعوة إبراهيم إيمانياً باتباع الخطة التي رسمها الرب لشعبه.

في أثناء الخروج، حين تولى موسى قيادة العبرانيين وتحريرهم من الأسر في مصر، ثم التأسيس للعهد المقدس الذي تماهت إسرائيل من خلاله مع الرب: يهوا، ورأته سيد التاريخ المنقذ[15]. على هذه القاعدة التاريخية استند إيمان الإسرائيليين المتواصل بالوعد القائم على تحققهم المستقبلي. عبر تبنيهم لوصايا الرب التي نزلت على موسى على جبل سيناء، أقدم العبرانيون، بامتثال، على خطب ود ربهم ومشيئته غير القابلة للتجاوز أو الإلغاز. لم يكن إله العبرانيين إلا إله المعجزات والأهداف الدائب على إنقاذ الأمم أو سحقها، وعلى استخراج الماء من بطن الصخور، واستنزال الطعام من السماء، وإنجاز خطته الخاصة بإسرائيل. لم يكن إلههم خالقاً وحسب بل ومحرراً،

وقد طمأن شعبه، إذ وعده بمصير مجيد شرط بقائه وفياً له وملتزماً بشريعته.

بقيت ضرورة الثقة بالرب والرهبة منه مهيمنتين على الحياة اليهودية، بوصفهما شرطاً مسبقاً للاستمتاع بنعمة قوته الإنقاذية في العالم. هنا بالذات كان الشعور الطاغي بالإلحاحية الأخلاقية، بكون القدر محدَّداً آخر المطاف بالأفعال الإنسانية الحاضرة، وبمسؤولية الفرد المباشرة أمام إله كلي الرؤية وكلي العدالة. من هنا أيضاً كان شجب أي مجتمع ظالم، واحتقار النجاح العلماني الفارغ، والدعوة النبوئية إلى التجدد الأخلاقي. ثمة رسالة سماوية نزلت على اليهود، داعية إياهم إلى الاعتراف بسيادة الرب على العالم، وإلى الإسهام في تحقيق غايته - جلب السلام، والعدالة، والنجاح للبشرية كلها. وهذه الخطة الأخيرة تجلت بوضوح في القرون اللاحقة من التاريخ المتقلب المضطرب لإسرائيل القديمة، خلال السبي البابلي (القرن السادس قبل الميلاد) وبعده، حين تطور إحساس متزايد بـ «يوم الرب» القادم، وهو اليوم الذي كان سيشهد قيام مملكة الرب، ومكافأة الصالح ومعاقبة الطالح، وتكريم إسرائيل، بوصفها المنارة الروحية للإنسانية. هو اليوم الذي كان سيشهد تمخض عذابات الشعب المختار الحالية عن حقبة جديدة قائمة على العدل، وعلى الورع الحقيقي، وعلى تجلي مجد الرب الكامل وانعكاسه على العالم. فبعد قرون من العناء والهزائم كانت شخصية مسيحيانية (خلاصية - هادية) ستظهر، شخصية كان التاريخ نفسه سيهتدي، عبر قوته الإلهية، إلى نهايته المظفرة. و«الأرض الموعودة» لإسرائيل، الملأى باللبن والعسل، باتت الآن موسعة لتصبح عملية قيام إسرائيل بجلب مملكة الرب إلى الإنسانية كلها، هذا الإيمان، هذا الأمل في المستقبل، هذا الحافز التاريخي الفريد الذي رفع لواءه حشد من الأنبياء والمسجل على نحوٍ مقنع وملزم في شعر الكتاب المقدس ونثره، هو الذي ضمن بقاء الشعب اليهودي واستمراره مدة ألفي عام.

حين بدأ يسوع الناصري كهانته، بدأها في أجواء ثقافية يهودية مشحونة بفيض من توقعات مجيء مسيح مخلص وحل رؤيوي كارثي لعقدة التاريخ، في ظل فيض توقعات كان قد بلغ حدوده القصوى. ومثل هذا السياق أضفى ثقلاً دراميا استثنائياً على

مبـادرة يسـوع إلى تبشير إخوته الجليلين بأن الزمـن كان، في شخصه هو، قد وصل، أخـيراً، إلى محطة تحقق النبـوءات التوراتية: (باتت مملكة الـرب في متناول البد». غير أن تعاليم يسوع عن المملكة الوشيكة، ولا التوقعات الأخروية المثارة من قبل وعاظ جوالين مثل: يوحنا المعمدان هي التي ألهمت بالدين الجديد.

ومهمـا يكن أساس ذلك الإيمان -ذلك الاعتقاد الراسخ الذي تتعذر المبالغة بمدى رسوخه- فإن ما كان سيبدو واضحاً هو أن أتباع يسوع كانوا قد حققوا، بسرعة وشمول لافتـين، إعادة صياغة لعقيدتهم الدينية التي قامـت بتفجير سلسلة من الافتراضات القديمة وإطلاق فهم جديد للرب والإنسانية.

وهـذه الرؤيـة الجديدة انبثقت بعيـد الصلب من رحم سلسلة مـن تجارب الوحي التـي أقنعـت عدداً مـن أتباع يسوع بأن معلمهـم قد عاد إلى الحيـاة، وقد قام. وهذه «التجليـات» ما لبثـت، وقد تعززت، لاحقـاً، بتجربة بولس الرؤيوية عـن المسيح الذي قـام، أن أقنعـت التلاميذ بأن يسـوع كان، بمعنى من المعاني، قد تمـت استعادته كلياً بفعل قدرة الرب. باتت النبوءات التوراتية اليهودية قابلة للفهم على نحو صحيح الآن: لم يكن المسيح ملكاً أرضياً؛ إنه ملك روحي؛ ومملكة الرب لم تكن انتصاراً لإسرائيل، بل إنقاذاً إلهياً للإنسانية، إنقاذاً جالباً لحياة جديدة مشبعة بروح الرب. وهكذا، فإن الحـدث المخيب بمـرارة لصلب زعيمهم شهد انقلاباً عجائبيـاً في عقول تلاميذه، إذ تحـول إلى قاعـدة راسخة وإيمان دون حدود واضحة بعمليـة خلاص نهائية للبشرية، وإلى حافز استثنائي الفاعلية للتبشير بذلك الإيمان.

كان يسـوع قد تحدى أشقاءه اليهود طالباً منهم التسليـم بفاعلية الرب الإنقاذية في التاريـخ، وهـي فاعلية ظاهرة بوضـوح في شخصه وكهانته. وهكـذا فإن المسيحية زعمـت أنها عبـارة عن تحقق الآمـال اليهودية: وفي مفارقة قائمة علـى المزاوجة بين الخطـيّ والسرمـدي أعلنت المسيحية حضور المسيح في العـالم حضوراً لمستقبل الرب الموعـود. أما مملكة الـرب فكانت قد باتـت حاضرة، ولكنها بقيت مـع ذلك في حالة بزوغ، ليكتمل إنجازها مع انتهاء التاريخ عند عودة المسيح المظفرة. صحيح أن العالم

كان قد تصالح مع نفسه في المسيح، ولكنه لم يكن بعد قد تم استكمال إنقاذه. ومن هنا، فإن المسيحية توجت الأمل اليهودي من ناحية، ولكنها ظلت أيضاً مصرة على استئناف أمل بانتصار روحي كوني في المستقبل القريب، حين سينبثق خلق جديد وإنسانية جديدة مستمتعة بنعمة حضور الرب الطليق دونما عوائق، من ناحية ثانية.

تماماً مثلما وفر الخروج الأساس التاريخي للأمل اليهودي بيوم الرب المستقبلي، تمخض بعث المسيح وعودته إلى الرب عن توفير أساس الأمل المسيحي ببعث البشرية وعودتها إلى الرب في المستقبل. وتماماً مثلما نجح الكتاب المقدس (العهد القديم) اليهودي بكشفه عن شريعة الرب ووعوده، متناقضاً مع تاريخ شعبه، في إدامة اليهود عبر القرون وشحن حيواتهم بمبادئه وآماله، فإن الأساس الداعم للديانة الجديدة وتقاليدها أصبح متمثلاً في الإنجيل المسيحي، مع «عهد جديد» أُلحق بـ «العهد القديم» (الإنجيل اليهودي). أما الكنيسة فكانت إسرائيل الجديدة. والمسيح كان هو العهد أو الميثاق الجديد. وهكذا فإن طابع العصر الجديد الذي أقبل مع المسيحية كان ممهوراً بالطابع اللاهليني كلياً لأمة إسرائيل الصغيرة.

بين سائر الصفات المميزة للديانة الجديدة، كانت ادعاءات المسيحية الزاعمة بامتلاك صفتي الشمول والتحقق التاريخي محورية، وهي ادعاءات مستمدة من اليهودية. فالإله اليهودي -المسيحي لم يكن إلهاً قبلياً أو مديناً واحداً بين حشد من الآلهة، بل كان الرب الأعلى الحقيقي الوحيد، صانع الكون، سيد التاريخ، ملك الملوك كلي القدرة وكلي المعرفة الذي تستحق حقيقته وقدرته اللتان لا نظير لهما، وبجدارة، ولاء جميع الأمم والبشرية كلها. في تاريخ إسرائيل، كان ذلك الرب قد دخل العالم على نحوٍ حاسم، قال كلمته عبر الأنبياء، ودعا الإنسانية إلى مصيرها السماوي المقدس: كان من شأن ما يخرج من رحم إسرائيل أن ينطوي على أهمية ذات علاقة بتاريخ العالم. وبالنسبة إلى الأعداد المتزايدة بسرعة من المسيحيين الدائبين على نشر رسالتهم في طول الأمبراطورية الرومانية وعرضها، فإن المسيحية هي التي خرجت من رحم إسرائيل.

## العناصر الكلاسيكية والموروث الأفلاطوني

نظراً لطبيعة العقيدة المسيحية الفريدة ورسالتها الأساسية، فقد انتشرت بصورة مذهلة من نواتها الجليلية الصغيرة، وصولاً إلى الإحاطة بالعالم الغربي. ففي غضون جيل واحد بعد موت يسوع، كان أتباعه قد قاموا بصياغة تركيبة دينية وفكرية داخل إطار عقيدتهم الجديدة التي قامت ليس فقط بإلهام كثيرين بالمبادرة إلى تنفيذ المهمة الصعبة في الغالب، مهمة إيصال تلك العقيدة إلى البيئة الوثنية المحيطة، بل وكانت أيضاً قادرة على مقاربة جملة التطلعات الدينية والفلسفية لأمبراطورية عالمية مدنية متطورة والعمل لاحقاً على تحقيقها. ومع ذلك، فإن التصور الذاتي للمسيحية بوصفها ديانة عالمية تيسر كثيراً جراء علاقتها بالعالم الهلينستي الأوسع. ومع أن ادعاء المسيحية للكونية الدينية ذو جذور يهودية، فإن كونيتها الفاعلة - نجاحها في التبشير - من جهة وكونيتها الفلسفية من جهة ثانية، كانتا مدينتين بأشياء كثيرة لمكان ولادتها الإغريقي - الروماني. في نظر قدماء المسيحيين لم يكن تجسد الإله في اللحظة التاريخية التي شهدت تقاطع الديانة اليهودية، والفلسفة اليونانية، والأمبراطورية الرومانية مصادفة.

من اللافت أن الأكثر قرباً من يسوع لم يكونوا يهود الجليل، بل بولس، ذلك المواطن الروماني ذو الخلفية الثقافية اليونانية الذي قام، عملياً، بتوجيه المسيحية إلى رسالتها الكونية. وعلى الرغم من أن جميع أوائل المسيحيين كانوا افتراضياً، من اليهود، فإن حفنة صغيرة فقط من اليهود ما لبثوا أن أصبحوا مسيحيين. على المدى الطويل نجح الدين الجديد في خطب ود قطاعات أوسع من أبناء العالم الهلينستي الأوسع[17]. صحيح أن اليهود كانوا قد انتظروا مسيحاً منذ أمد طويل، غير أنهم ظلوا يتوقعون ظهور إما عاهلاً سياسيًّا، مثل ملكهم القديم داود، الذي كان سيؤكد سيادة إسرائيل في العالم، أو أميرًا روحيًّا صريحًا -«ابن إنسان»- كان سيصل نازلاً من السماوات في هالة مجد ملائكية عند آخر الزمن الدرامي المثير. لم يتوقعوا ذلك اليسوع اللاسياسي، اللاكفاحي، الإنساني الواضح، المُعاني والمحتضر. يضاف إلى ذلك أن الدين اليهودي كان بطبعه، على الرغم من أن اليهود كانوا يدركون أن من شأن دينهم أن ينطوي على عواقب ذات شأن بالنسبة إلى البشرية كلها، قومياً وانعزالياً، متمركزاً، على نحوٍ شبه كامل، على شعب إسرائيل، وهي روح استمرت لدى أولئك

اليهود المسيحيين الأوائل في القدس ممن عارضوا الاستيعاب الكامل لغير اليهود في جماعة العقيدة إلى حين إيقاظ إسرائيل كلها. وفي حين أن مسيحيي القدس، تحت قيادة يعقوب وبطرس، استمروا لبعض الوقت يطالبون بمراعاة القواعد اليهودية التقليدية التي تحظر أكل المشاع، بما يحصر الدين الجديد في الإطار اليهودي، أكد بولس، وسط معارضة شديدة، أن الحرية الجديدة مع التطلع المسيحي إلى الخلاص كانت قد أصبحت حاضرة كونياً، بالنسبة لغيرهم من خارج الناموس اليهودي، جنباً إلى جنب مع اليهود في إطار هذا الناموس. البشرية كلها بحاجة إلى المنقذ أو المخلص الإلهي، وهي قادرة على تبنيه واحتضانه. في ذلك السجال العقدي الأصولي الأول داخل الكنيسة، كانت نزعة بولس الكونية هي التي انتصرت على النزعة الإقصائية اليهودية، انتصاراً ترافق مع سلسلة طويلة من الارتدادات والأصداء بالنسبة إلى العالم الكلاسيكي.

إن امتناع الجزء الأكبر من اليهود عن تبني الوحي المسيحي، ونجاح رد فعل بولس - الذي غرس المسيحية في قلوب الأغراب من غير اليهود- تضافرا مع فيض من الأحداث السياسية لتحويل مركز ثقل الدين الجديد من فلسطين إلى العالم الهلينستي الأوسع. فبعد يسوع تابعت الحركات الثورية السياسية المسيحية (المهدوية) بقيادة حزب الغلاة نضالها بين صفوف اليهود ضد الرومان، واصلة إلى ذروة حاسمة بعد جيل واحد في انتفاضة فلسطينية واسعة الانتشار، وفي الحرب التي أعقبت الانتفاضة، نجحت جيوش روما في سحق التمرد، وفي الاستيلاء على القدس، وفي تدمير الهيكل اليهودي عام 70 م. تعرضت الطائفة المسيحية في القدس وفلسطين للتشريد والبعثرة، كما تعرضت العلاقة الأوثق بين الدين المسيحي واليهودية -تلك العلاقة التي كان مسيحيو القدس يصونونها ويرمزون إليها- للبتر. وبعد ذلك أصبحت المسيحية ظاهرة هلينستية أكثر منها فلسطينية.

لا بد أيضاً من ملاحظة أن الثقافة اليونانية - الرومانية، مقارنة باليهودية، كانت من نواحٍ عديدة أكثر بعداً عن الطائفية، وقرباً من الكونية والشمول على صعيدي ممارستها ورؤيتها على نحوٍ متسق. فالأمبراطورية الرومانية وقوانينها تعالت على

سائر القوميات والحدود السياسية السابقة، مانحة المواطنة والحقوق لجميع الشعوب المهزومة، كما فعلت بالنسبة إلى الرومان. وقد نجح العصر الهلينستي، بمراكزه الحضرية العظيمة، إضافةً إلى التجارة والترحال، في ربط العالم المتمدن ربطاً غير مسبوق. والمثل الرواقي الأعلى لأخوة البشرية والمدينة الكونية (الكوزموبوليس)، أو المدينة العالمية شكل تأكيداً لحقيقة أن جميع البشر أبناء أحرار ومتساوون للرب.

أما **اللوغوس** الكوني للفلسفة اليونانية، فقد تعالى على جميع التناقضات والنواقص الظاهرة، حيث عقل السماء حاكم للإنسانية كلها مع الكون (الكوزموس) ولكنه كامن مع ذلك في عقل الإنسان وفي متناول أي فرد مهما كانت أمته أو شعبه بالقوة. إلا أن ديانة مسيحية كونية ذات أبعاد عالمية لم تصبح ممكنة إلا بفضل الوجود المسبق للأمبراطوريتين الإسكندرية والرومانية في المقام الأول، الأمبراطوريتين اللتين لولاهما لبقيت الأوطان والشعوب المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط ممزقة إلى كثرة هائلة من الثقافات العرقية ذوات الوضعيات اللغوية، والسياسية، والكوزمولوجية شديدة التباين والافتراق. وعلى الرغم من الخصومة المفهومة التي كان عدد كبير من أوائل المسيحيين يحسون بها تجاه حكام روما، فإن **عصر السلام الروماني (الباكس رومانا)** هو الذي وفر حرية الحركة والتواصل التي كانت ضرورية بالنسبة إلى نشر العقيدة المسيحية. فمن بولس، مع بداية المسيحية، إلى أوغسطين، أكثر أبطال المسيحية تأثيراً ونفوذاً عند نهاية الحقبة الكلاسيكية، تعرضت شخصية الديانة الجديدة وتطلعاتها لقدرٍ حاسم من القولبة بفعل سياقها الإغريقي – الروماني.

تنطبق هذه الاعتبارات ليس فقط على الجانب العملي من نشر المسيحية، بل وعلى النظرة المسيحية المتطورة والمركبة إلى العالم، وقد باتت مهيمنة على العقل الغربي. وعلى الرغم من أن النظرة المسيحية قد تبدو بنية إيمانية مستقلة وتوحيدية، فإن بوسعنا، على نحوٍ أكثر دقة، أن نميز لا اتجاهات متعارضة مع الكل وحسب، بل واستمرارية تاريخية مع جملة التصورات الميتافيزيقية (الماورائية) والدينية لدى العالم الكلاسيكي. صحيح أن تعددية الثقافة الهلينستية وتوفيقيتها، هذه الثقافة ذات المدارس الفلسفية المتداخلة وأديانها القائمة على تعدد الآلهة، جرى إبدالهما، مع صعود المسيحية، بتوحيدية إقصائية مستمدة من التراث اليهودي. صحيح أيضاً أن

اللاهوت المسيحي دأب على فرض الوحي التوراتي أو الإنجيلي، بوصفه حقيقة مطلقة، وعلى مطالبة جميع التأملات والتخمينات الفلسفية بالامتثال الصارم للكنيسة، غير أن النظرة المسيحية إلى العالم كانت، داخل هذه الحدود، كثيفة الاغتناء بسابقاتها الكلاسيكيات. لم يقف الأمر عند وجود أوجه شبه بالغة الحساسية بين مبادئ المسيحية وطقوسها ونظيرتها لدى الديانات السرية، بل وقد كان يجري، إضافةً إلى ذلك، ومع مرور الزمن، استيعاب أوسع عناصر الفلسفة الهلينية اطلاعاً من قبل العقيدة المسيحية، مع تمكينهم من ممارسة تأثيرهم عليها. لا شك في أن المسيحية بدأت وانتصرت في الأمبراطورية الرومانية، لا بوصفها فلسفة بل بوصفها ديناً – شرقيا ويهودياً من حيث الطابع، مشاعياً بقوة، خلاصياً، عاطفياً، صوفياً، معتمداً على بيانات إيمانية وعقيدة مستلهمة من الوحي، وعلى الاستقلال عن العقلانية الهلينية. ومع ذلك، فإن المسيحية سرعان ما اكتشفت أن الفلسفة اليونانية لم تكن مجرد منظمة فكرية وثنية غريبة مضطرة للاشتباك معها، بل بدت لعدد غير قليل من علماء اللاهوت المسيحيين نسيجاً إلهياً، مسبق التنظيم، صالحاً لتفسير العقيدة المسيحية تفسيراً عقلانياً.

تمثل جوهر لاهوت بولس في إيمانه بأن يسوع لم يكن إنساناً عادياً، بل كان هو المسيح الذي تجسد، بوصفه يسوع الإنسان؛ ليخلص البشرية ويوصل التاريخ إلى غايته المجيدة. في رؤية بولس، تتولى حكمة الرب حكم التاريخ كله بطريقة مخفية، ولكنها ما لبثت أن تجلت في المسيح، الذي صالح العالم مع السماء. ما من شيء إلا وهو موجود في المسيح الذي هو مبدأ الحكمة الإلهية بالذات. لم يكن المسيح سوى الأنموذج الأصلي للخلق كله، للخلق الذي حذا حذوه، واندمج فيه، واهتدى إلى معناه المظفر في تجسده وقيامته. وهكذا، فإن المسيحية باتت ترى مجمل حركة التاريخ الإنساني، بما فيه سائر نضالاته الدينية والفلسفية، خطة سماوية متجلية متحققة بمجيء المسيح.

إن ملاحظة أوجه الشبه بين هذا التصور للمسيح ونظيره في **اللوغوس** اليوناني لم تفت المسيحيين الهلينستيين. فالفيلسوف اليهودي المعروف **فيلو** الإسكندري، وهو معاصر أكبر سناً **ليسوع وبولس**، كان قد صاغ تركيبة يهودية – إغريقية متمحورة

علـى عبارة «**اللوغوس**»[18]، إلا أن علاقة المسيحية بالفلسفة اليونانية لم تبدأ بفاعلية إلا مـع الكلمـات التمهيدية للكتـاب المقدس حسب يوحنا: «في البـدء كان **اللوغوس**». وبعيـد ذلك بدأت عمليـة اندماج غير عادية بين الفكر اليونـاني واللاهوت المسيحي، وتواصلت متمخضة آخر المطاف عن حصول تغيير في هذا وتلك.

في مواجهة حقيقية الوجود المسبق في الثقافة المتوسطية الأوسع تراثاً فلسفياً متطوراً أوجـده اليونانيون، سرعان ما تنبهت الطبقة المثقفـة من أوائل المسيحيين إلى ضرورة إدخال ذلك التراث في عقيدتهم الدينية. وعملية الاستيعاب هذه تمت مواصلتها إرضاء لهم هم من جهة ومساعدة للثقافة الإغريقية – الرومانية على فهم اللغز المسيحي من جهة ثانية. غير أن الأمر لم ينظر إليه على أنه زواج مصلحة؛ لأن الفلسفة الأفلاطونية ذات الأصداء الروحانية لم تكتفِ بالتناغم مع التصورات المسيحية المستمدة من آيات وحي العهد الجديد، بل تجاوزت ذلك إلى تطوير تلك التصورات وتعزيزها فكرياً. ثمة مبـادئ أفلاطونية أساسية اهتـدت الآن إلى ما يؤيدها، وإلى معنـى جديد في السياق المسيحـي: وجود حقيقة متعالية لكمال سرمدي، سيادة حكمة السماء في الكون، أولوية الروحـي على المادي، التأكيـد السقراطي على «رعاية الروح»، خلود الروح والضرورات الأخلاقية العليا، حصولها على عدالة السماء بعد الموت، أهمية المعاينة الذاتية المدقِّقة، النصـح بضبط العواطف والشهوات؛ خدمة للخير والحق، المبدأ الأخلاقي الذي يقول: إن مـن الأفضل التعرض للظلم بدلاً من ممارسته، الإيمان بـأن الموت إن هو إلا معبر إلى حيـاة أكثر وفرة، وجود شرط قبلي لمعرفة إلهية محجوبة الآن بسبب حالة الإنسان الطبيعية المحدودة، فكرة الانخراط في الأنموذج الأصلي السماوي، الذوبان التدريجي في بوتقة الرب، بوصفه هدف طموحات الإنسان. ومع أن لها جذوراً كلية الاختلاف عن الديانة اليهودية – المسيحية، فإن التراث الأفلاطوني كان، في نظر عدد كبير من أوائل المثقفـين المسيحيـين، تعبيراً صادقاً عـن الحكمة السماوية، القادرة علـى إضفاء رؤى ميتافيزيقيـة على بعض أكثر الألغاز المسيحية عمقاً. ومع نضج الثقافة المسيحية خلال عدد من قرونها الأولى، تطور فكرها الديني إلى لاهوت منهجي، ومع أن ذلك اللاهوت كان يهوديـاً – مسيحيـاً من حيث المضمون، فـإن بنيته الميتافيزيقيـة كانت أفلاطونية إلى حـدٍّ كبـير. ومثل هذه المزاوجة تمت على أيدي كبار لاهوتيي الكنيسة الأولى – على

أيدي الشهيد جوستين أولاً، كلمنت الإسكندري وأوريغن، على نحوٍ أكمل، بعد ذلك، وأوغسطين أخيراً، على نحو قمة في الكمال.

بدورها عُدت المسيحية تتويجاً للفلسفة، والكتاب المقدس أساساً للاجتماع العظيم بين الهلينية واليهودية. فالإعلان المسيحي أن **اللوغوس**، عقل العالم بالذات، كان بالفعل قد تقمص شكل الإنسان في شخص يسوع المسيح التاريخي، وأثار اهتماماً واسعاً في عالم الثقافة الهلينستية. وعبر فهمهم للمسيح بوصفه لوغوساً متجسداً، قام أوائل اللاهوتيين المسيحيين بالمزاوجة بين العقيدة الفلسفية الإغريقية القائلة بعقلانية العالم السماوية القابلة للفهم من جهة والعقيدة الدينية اليهودية القائلة بعالم الرب الإبداعي، المتجلي عن إرادة الرب السماوية والمضفي على تاريخ الإنسان معناه الخلاصي. ففي المسيح، أصبح **اللوغوس** إنساناً: أصبح التاريخي والأزلي، المطلق والشخصي واحداً. ومن خلال فعله الإنقاذي، مكّن المسيح الروح من الوصول إلى الحقيقة المتعالية ولبى، من ثم مطلب الفيلسوف الأقصى. وبعبارات شديدة التذكير بالأفلاطونية بأفكارها المتعالية راح اللاهوتيون المسيحيون يبشرون بأن اكتشاف المسيح إن هو إلا اكتشاف حقيقة الكون وحقيقة وجود المرء الخاص في إشراق أحادي واحد.

بدت البنية الفلسفية الأفلاطونية الجديدة، المتطورة تتزامن جنباً إلى جنب مع اللاهوت المسيحي المبكر في الإسكندرية، مقدِّمة لغة ميتافيزيقية استثنائية الملاءمة لتحقيق فهم أفضل للرؤية اليهودية المسيحية. ففي الأفلاطونية الجديدة كان كبير الآلهة، الواحد، المتعالي غير القابل للوصف، قد طرح صورته الصريحة -النوس الإلهي أو العقل الكوني- وروح **العالم**. أما في المسيحية فإن الأب المتعالي كان قد طرح صورته الصريحة -الابن أو **اللوغوس**- وروح القدس. غير أن المسيحية أضفت الآن تاريخية ديناميكية على التصور الهليني، إذ أكدت أن **اللوغوس**، الحقيقة الأزلية الحاضرة منذ خلق العالم، كان قد أُدخل في تاريخ العالم على شكل إنساني لإعادة ذلك الخلق، عبر الروح، إلى جوهره السماوي المقدس. في المسيح تمت إعادة توحيد السماء والأرض، وتمت المصالحة بين الواحد والكثرة. وإن صعود الفيلسوف الروحي

الخاص بات الآن، عبر تجسد **اللوغوس**، المصير التاريخي لمجمل الخلق. من شأن الكلمة أن توقظ البشرية كلها، وعبر الإقامة في الروح القدس كان من شأن عودة العالم إلى الواحد أن تحصل، ذلك النور الأعلى، المنبع الحقيقي للحقيقة المتدفق خارج كهف ظلال **أفلاطون**، بات الآن ينظر إليه على أنه المسيح. فقد أعلن كلمنت الإسكندري: (**باللوغوس**، صار العالم كله الآن أثينا واليونان).

من اللافت فيما يخص هذه الحميمية بين الأفلاطونية والمسيحية أن **أفلوطين** وأوريغن، المفكرين المركزيين للمدرسة الأخيرة في الفلسفة الوثنية والمدرسة الأولى للفلسفة المسيحية، على التوالي، تتلمذا على المعلم نفسه في الإسكندرية، على **آمونيوس كاكاس** (شخصية لغز يكاد لا يُعرَف عنها شيء). كانت فلسفة **أفلوطين** بدورها عنصراً محورياً في اهتداء **أوغسطين** التدريجي إلى المسيحية، وهذا الأخير كان يرى **أفلوطين** شخصاً «عاد فيه **أفلاطون** حياً» ويعد فكر أفلاطون «الأنقى والأسطع في الفلسفة كلها»، شديد العمق إلى التطابق شبه الكامل مع العقيدة المسيحية. وهكذا، فإن أوغسطين كان يرى أن الأشكال أو المُثل الأفلاطونية موجودة في عقل الرب الإبداعي، وأن أساس الحقيقة كامن وراء عالم الحواس، ومتاح فقط عبر تحول جذري للروح إلى الداخل. وبرغم مسيحيّتها لم تكن عبارة **أوغسطين** الأنموذجية الأصلية: «الفيلسوف الحق هو عاشق الرب» أقل أفلاطونية. وصياغة **أوغسطين** للأفلاطونية المسيحية كانت، افتراضياً، ستطغى على كل فكر القرون الوسطى المسيحي في الغرب. واستيعاب المسيحية للروح اليونانية كان حماسياً جداً إلى درجة أن **سقراط** و**أفلاطون** كثيراً ما عُدّا قديسين ملهمين مما قبل المسيحية، ناقلين **للوغوس** المقدس الموجود في العصور الوثنية – «مسيحيين قبل المسيح» كما زعم جوستين. وفي الأيقونات المسيحية القديمة، جرى تصوير سقراط وأفلاطون بين الذين جرى إنقاذهم ممن انتشلهم المسيح من العالم السفلي بعد إغارته على هاديس (عالم الأموات). بحد ذاتها ربما كانت الثقافة الكلاسيكية محدودة وزائلة، غير أنها من وجهة النظر هذه كانت تولد من جديد عبر المسيحية، موهوبة حياة ومعنى جديدين. وهكذا، فإن كلمنت أعلن أن الفلسفة كانت قد هيأت اليونانيين لاستقبال المسيح، تماماً مثلما كان الناموس قد أعد اليهود.

مهما تكن هذه العلاقة مع الفكر الأفلاطوني راسخة، فإن الزخم الأساسي

للمسيحية مستمد من أساسه اليهودي. فعلى النقيض من موازنة اليونانيين اللازمنية لعدد كبير من الكيانات الأنموذجية الأصلية ذات المواصفات والميادين المختلفة، تمخضت التوحيدية اليهودية عن إضفاء إحساس استثنائي القوة بالسماء، بوصفه كياناً شخصياً أعلى ذا خطة تاريخية محددة لإنقاذ البشرية. فالله يفعل في التاريخ ومن خلاله بهدف وتوجه محددين. وبالمقارنة مع اليونانيين، دأبت اليهودية على تكثيف وتشديد الإحساس بالمقدس أو الديني، معتبرة إياه فائضاً من الإله الأوحد، كلي القوة الذي هو الخالق والمخلص. وعلى الرغم من أن الديانة التوحيدية كانت موجودة دون شك في عدد من التصورات الأفلاطونية المختلفة للرب -العقل الكوني، القوة الخلاقة، المثل الأعلى للخير، وخصوصاً الواحد الأفلاطوني الجديد الأعلى- فإن رب موسى، حسب إقراره هو نفسه، كان فريداً تفردًا لا جدال حوله في ألوهيته، كما كان أكثر شخصانية في علاقته مع البشر، وأكثر تحرراً في نشاطه في تاريخ الإنسان، مقارنة بالمطلق الأفلاطوني المتعالي. وعلى الرغم من أن سيرة النفي والعودة اليهودية منطوية على وجه شبه مدهش بالعقيدة الأفلاطونية الجديدة حول خروج الكون (الكوزموس) من الواحد وعودته إليه، فإن الأول تمتع بملموسية تاريخية مشهودة مشاعياً، وبحماسة عاطفية مكرسة طقسياً لم تكن من ميزات مقاربة الثانية الأكثر باطنية، فكرية، وفردية.

في حين أن الإحساس الهليني بالتاريخ كان دورانياً، إذ بقي نظيره اليهودي خطياً وتقدمياً على نحو حاسم، بقي ذلك التحقق التدريجي لخطة الرب بالنسبة إلى الإنسان عبر الزمن[19]. وفي حين أن الفكر الديني الهليني كان ميالاً إلى التجريد وتحليلياً، فإن النمط اليهودي كان أكثر ملموسية، ديناميكية، وقطعاً. وحيثما كان التصور اليوناني للرب مستنداً إلى فكرة ذكاء أعلى حاكم، قام التصور اليهودي على تأكيد فكرة إرادة عليا حاكمة. فجوهر العقيدة اليهودية مستند إلى توقع ملتهب لاحتمال قيام الرب بالمبادرة الفاعلة إلى تجديد سيادته على العالم في عملية تحويل مسرحية مثيرة لتاريخ الإنسان، ومع مجيء زمن يسوع تركز هذا التوقع على ظهور مسيح شخصي. نجحت المسيحية في الجمع بين التراثين عبر الإعلان، عملياً، عن أن الحقيقة السماوية العليا والصادقة - حقيقة الرب الأب والخالق، المتعالي الأفلاطوني

السرمدي - كانت قد توغلت في العالم الناقص والمحدود للطبيعة وتاريخ الإنسان عبر تجسيد يسوع المسيح، لحماً ودماً، **اللوغوس**، الذي كانت حياته وموته قد أطلقا عملية إعادة توحيد تحريرية للملكوتين المنفصلين من قبل - المتعالي والأرضي، الإلهي والإنساني، وصولاً إلى ميلاد جديد للكون (الكوزموس) عبر الإنسان. فخالق العالم واللوغوس كانا قد اخترقا التاريخ من جديد بقوة إبداع وخلق متجددة، مدشنين نوعاً من المصالحة الكونية الشاملة. في عملية الانتقال من الفلسفة اليونانية إلى اللاهوت المسيحي، تم جعل المتعالي جوهراً أصلياً، والأبدي تاريخياً، وتاريخ الإنسان نفسه بات الآن ذا مغزى روحي: «صار **اللوغوس** لحماً يعيش بيننا».

## هداية العقل الوثني

على امتداد الحقبة الهلينستية، كانت حتى الثقافة اليهودية قد اختُرقت بتأثيرات هلينية. فالانتشار الجغرافي الواسع للجاليات اليهودية عبر الأمبراطورية المتوسطية كان قد سرّع هذا التأثير، المنعكس في أدبيات دينية يهودية لاحقة، مثل كتب الحكمة، في السبعونية، كما في الدراسات التوراتية في الإسكندرية، إضافة إلى الفلسفة الدينية الأفلاطونية **لفيلو**. غير أن الحافز اليهودي ما لبث بدوره، مع ظهور المسيحية، وخصوصاً مع تولي بولس رسالة نشر إنجيلها فيما وراء حدود اليهودية، أن أطلق حركة معارضة أحدثت انقلاباً جذرياً في المساهمة الهلينية في النظرة المسيحية إلى العالم المنبثقة في القرون المتأخرة من الحقبة الكلاسيكية. فالتيارات القوية في الميتافيزيقا، الأبستمولوجيا (علم المعرفة) والعلوم اليونانية، جملة المواقف اليونانية المميزة من الأسطورة، من الدين، ومن الفلسفة، ومن تحقيق الذات -تمت إعادة صياغتها جميعاً في ضوء آيات الوحي اليهودي- المسيحي.

تعرضت مكانة **الأفكار** المتعالية، المركزية جداً في التراث الأفلاطوني والمتمتعة بتقدير واسع لدى المثقفين الوثنيين، لقدرٍ لافت من التغيير. صحيح أن أوغسطين اتفق مع أفلاطون على أن الأفكار تؤلف الأشكال الراسخة وغير القابلة للتغيير لجميع الأشياء، وتوفر أساساً معرفياً متيناً للمعرفة الإنسانية، غير أنه أشار إلى أن **أفلاطون** مفتقر إلى عقيدة خلق مناسبة لتفسير مشاركة الخصوصيات في **الأفكار**.

(فخالق أفلاطون، الديميورج (Demiurge) التيمياوسي، لم يكن كائناً أعلى كلي القوة؛ لأن عالم الصيرورة الفوضوي الذي فرض عليه أفكاره كان موجوداً سلفاً مثله مثل الأفكار نفسها؛ كما لم يكن كلي القدرة في مواجهة الأنانكه (Ananké) (كوكب المشترى) السبب الخاطئ. لذا فإن أوغسطين جادل أن من شأن تصور أفلاطون الميتافيزيقي أن يتحقق عبر الوحي اليهودي - المسيحي الصادر عن الخالق الأعلى، الراغب بحرية في خلق الوجود من العدم، والذي لا يفعل ذلك إلا وفق الأنماط الناظمة الأساسية التي رسختها الأفكار الأزلية الكامنة في العقل الإلهي. رأى أوغسطين الأفكار بوصفها التعبير الجماعي لكلمة الرب، **اللوغوس**، ونظر إلى سائر النماذج الأصلية، بوصفها متضمنة، ومعبرة عن كينونة المسيح. بدا التشديد هنا على الرب وخلقه أكثر منه على الأفكار وتقليدها الملموس، مع قيام الإطار الأول باستخدام الإطار الثاني واستيعابه، كما قامت المسيحية، عموماً، باستخدام الأفلاطونية واستيعابها إلى حدٍّ كبير.

إلى هذا التصحيح الميتافيزيقي **لأفلاطون**، أضاف **أوغسطين** تعديلاً أبستمولوجياً (معرفياً). كان أفلاطون قد أسند المعرفة الإنسانية كلها إلى مصدرين، الأول: مستمد من تجربة الحواس، وهي لا يعوّل عليها، والثاني: مستمد من الإدراك المباشر للأفكار الأبدية، التي تكون معرفتها كامنة ولكنها منسية وتتطلب الاستحضار، والتي توفر المصدر الوحيد للمعرفة المؤكدة. وافق أوغسطين على هذه الصياغة، مؤكداً أن ليس بوسع الإنسان امتلاك أفكار ذهنية منبثقة في عقله، دون أن تكون مضاءة من قبل الرب، كما لو من شمس روحية داخلية. وهكذا فإن معلم الروح الحقيقي الوحيد هو معلم داخلي، وهو الرب. غير أن أوغسطين أضاف مصدراً آخر إلى مصدري المعرفة الإنسانية -الوحي المسيحي- مصدراً فرضه سقوط الإنسان من السماء وأعاده إليه مجيء المسيح. وهذه الحقيقة، المتجلية في وصايا الإنجيل والواردة في تراث الكنيسة، أكملت الفلسفة الأفلاطونية تماماً، كما أكملت الناموس اليهودي، تمهيداً، في الحالتين، للنظام الجديد.

على الرغم من أن أفلاطونية **أوغسطين** كانت محددة نظرياً، فإن توحيدية

المسيحيــة المتشددة على الصعيد العملي أدت إلى اختزال المغزى الميتافيزيقي للأفكار الأفلاطونية. فعلاقة مباشرة مع الرب مستندة إلى الحب والإيمان أكثر أهمية من أي اشتبــاك فكري مع **الأفـكار**. وأي حقيقة محصلة عبر الأفـكار متوقفة على الرب مما يبقيها أقل شأناً في الخارطة المسيحية للأشياء. **فاللوغوس** المسيحي، الكلمة الفاعلة -الخالقــة، الآمرة، الملهمة، المنقذة- تحكم الجميع. وحقيقة تعددية النماذج الأصلية تعارضــت هي الأخــرى مع فكرة اضطلاعها بدور رئيســ في حقيقة المسيحية الأحدية الروحيــة عموماً. يضاف إلى ذلك أن عقيدة الأفلاطونية الجديدة القائمة على القول بنوع من التراتبية في الوجود، حيث الواقع متراصف على مستويات متضائلة القداسة بالتتابع، جوبهت بنواحٍ معينة من الوحي البدائي المسيحي (الموروثة عن القرن الميلادي الأول)، تلــك النواحي المؤكدة لنوع من التوحيد والتقديس الأساسيين للخلق كله، لنوع من الانفجار الديمقراطي لسائر المقولات والتراتيبات السابقة. بالمقابل، ثمة عناصر أخــرى في التراث اليهودي - المسيحــي أكدت الثنائية المطلقة بــين الرب وخلقه، تلك الثنائية التي حاولت الأفلاطونية الجديدة تعديلها لمصلحة قيام **الواحد** بإطلاق فيض القداســة عــبر مستويات وسيطة -مثــل الأفكار- لغمر الكــون (الكوزموس) كله. لعل الأهــم، برغم كل ذلــك، هو أن الوحي الإنجيلــي وفر حقيقة أقرب منــالاً وأيسر على الفهم بالنسبة إلى كتلة المؤمنين المسيحيين مقارنةً بأي نقاشات فلسفية حصيفة حول الأفكار الأفلاطونية.

غير أن لاهوتيي المسيحية واظبوا، مع ذلك، على استخدام نمط التفكير الأنموذجي الأصلــي في العديد من أكــثر عقائد الديانة المسيحية أهمية: مشاركة البشرية كلها في خطيئــة آدم، الأمر الذي شكل، على هذا النحو، الأنموذج الأصلي الأول للإنسان غير المفتَــدى؛ آلام المسيح، بوصفها شاملة لمجمل المعانــاة الإنسانية، متمخضة، عبر عمله الافتدائــي، بوصفــه آدم ثانياً، عن خلاص الجميع؛ المسيح بوصفــه الأنموذج الأصلي للإنسانيــة المثالية، مع احتمــال انخراط كل روح إنسانية في الوجــود الكوني للمسيح؛ الكنيســة الكونية غــير المرئية، كلية الوجود في سائر الكنائــس المنفردة؛ الرب الأعلى الأوحد كلي الوجــود في كل من - أشخاص الثالوث؛ المسيح بوصفه **اللوغوس** الكوني.

وثمة نماذج أصلية توراتية مثل الخروج، الشعب المختار، أرض الميعاد لم تتوقف قط عن أن تؤدي دوراً مهماً في الخيال الثقافي. وعلى الرغم من أن الأفكار الأفلاطونية لم تكن مركزية بالنسبة إلى منظومة الإيمان المسيحي، فإن العقل القديم والوسيط بقي عموماً ميالاً إلى التفكير من منطلق سلسلة من الأنماط، والرموز، والعموميات، وقد وفرت **الأفلاطونية** الإطار الأكثر إتقاناً فلسفياً لإدراك ذلك الأنموذج من التفكير. وبالفعل، فإن وجود **الأفكار** ومسألة واقعيتها المستقلة كانا سيغدوان موضوعي مناقشات حادة في إطار الفلسفة المدرسية اللاحقة، مناقشات كان من شأن حصائلها أن تنطوي على مضاعفات خارج حدود الفلسفة بالذات.

آلهة الوثنيين كانوا أكثر صراحة في تناقضهم مع التوحيد التوراتي، وأقوى استعداداً للاستغناء عنه. بداية تم النظر إليهم بوصفهم قوى حقيقية، وإن على شكل كائنات أدنى أشبه بالعفاريت، غير أنهم ما لبثوا أن رُفضوا كلياً وعُدوا آلهة زائفة، وحشد أصنام من صنع الخيال الوثني، لم يكن الإيمان الفاعل بهم إيماناً أعمق بالخرافات وحسب، بل وهرطقة بالغة الخطورة. إن الطقوس والألغاز القديمة كانت تشكل عقبة واسعة الانتشار أمام التبشير بالعقيدة المسيحية، وقد تمت محاربتها لذلك من قبل المدافعين عن المسيحية من منطلقات غير بعيدة عن منطلقات فلاسفة أثينا الكلاسيكيين، وإن في سياق جديد وغاية مختلفة. وكما جادل كلمنت مثقفي الإسكندرية الوثنيين، فإن العالم ليس ظاهرة أسطورية ملأى بالآلهة وأنصاف الآلهة، بل هو، بالأحرى، عالم طبيعي مدار إلهياً من قبل الرب الواحد الأعلى المكتفي ذاتياً. وبالفعل، فإن تماثيل الوثنيين المجسدة للآلهة لم تكن أكثر من أصنام منحوتة من الحجر، والأساطير مجرد حكايات خيالية عن مخلوقات شبيهة بالبشر. فقط الرب غير المرئي الواحد والوحي التوراتي الواحد كانا صادقين وصحيحين. كذلك لم تكن فلسفات ما قبل سقراط، سواء تلك العائدة **لطاليس**، أو تلك المعطوفة على **أيمبدوكليس**، المؤلهة لعناصر الطبيعة أفضل حالاً من الأساطير البدائية. لا تجوز عبادة المادة؛ فالعبادة هي، بالأحرى، لصانع المادة وخالقها. الأجرام السماوية ليست

مقدسة، بل المقدس هو خالق تلك الأجرام. باتت إمكانية تحرير الإنسان من جملة الخرافات القديمة وتنويره بالضوء المقدس الحقيقي للمسيح متوافرة. بات من الممكن الآن الوقوف على حقيقة أن عشرات آلاف الأشياء المقدسة في الخيال البدائي ليست أكثر من أشياء طبيعية تم إلباسها بسذاجة أثواب قوى فوق طبيعية غير موجودة. إن البشر -لا الحيوانات أو الطيور، الأشجار أو الكواكب- هم الحَمَلة الحقيقيون للرسالة المقدسة، المختارون أنبياء للرب. فالحاكم الكوني الحقيقي ليس هو زيوس الهليني الزائف، بل الرب اليهودي المسيحي العادل الأسمى. والمسيح التاريخي، لا **ديونيسوس** أو **أورفيوس** أو **ديمتر** الأسطوريين، كان هو المنقذ الحقيقي. بزغ فجر المسيحية وبدد ظلام الوثنية. وقد شبه كلمنت العالم اليوناني - الروماني الوثني المتأخر بالعرافة تيريسياس -عجوز، حكيمة، ولكنها عمياء ومحتضرة- مما حفزه على التخلي عن حياته وعاداته السابقة، نبذ جملة الكهانات والعرافات الوثنية، والالتحاق بركب لغز المسيح الجديد. بات مقتنعاً بأن من شأن التزامه بالرب أن يمكّنه من الرؤية من جديد، رؤية السماء بالذات، ومن أن يصبح الابن المتجدد دائماً للمسيحية.

وهكذا، فإن الآلهة القديمة ماتت في حين أن الرب الحقيقي الواحد تجلى وتمجّد. غير أن سيرورة تمثُّل أكثر حساسية وتمايزاً في عملية هداية الوثنيين؛ لأن عدداً كبيراً من الملامح الجوهرية للديانات السرية الوثنية ما لبثت، في أثناء إقدام العالم الهلينستي على تبني المسيحية، أن وجدت في الديانة المسيحية تعبيراً ناجحاً: الإيمان بإله مخلص جلب الخلود للإنسان بموته وقيامته، جملة أطروحات التنوير والإحياء، إطلاع المكرسين الطقسي مع جماعة المصلين على معرفة الحقائق الكونية الخلاصية، الفترة التمهيدية قبل الإطلاع، مطالب نقاء العبادة، الصوم، صلوات الأماسي، شعائر الصباح الباكر، الولائم المقدسة، المواكب الطقسية، رحلات الحج، إضفاء أسماء جديدة على المكرّسين. غير أن المسيحية المبكرة بادرت إلى إعلان المسيح مدشناً خلاص حتى العالم المادي في حين أن ديانات سرية معينة ظلت تؤكد الاستغلاق الشرير للمادة الذي لا يستطيع تجاوزه سوى المكرسين. كذلك قامت المسيحية باستحداث عنصر عام وتاريخي جوهري وإدخاله في الإطار الأسطوري: لم يكن يسوع المسيح شخصية

أسطوريــة، بل شخصاً تاريخياً حقق النبــوءات اليهودية المسيحية (المهدوية) وأوصل الوحــي الجديــد إلى جمهور شامل للكون، مع احتمال صــيرورة البشرية كلها جمهوراً مــن المكرسين الجدد، بدلاً من بقــاء الأمر مقتصراً على قلة مختارة. ما كان بالنسبة إلى الألغــاز والعجائب الوثنيــة عملية أسطورية غريبة -لغز المــوت والقيامة- كان قد أصبــح في المسيح ومــن خلاله واقعاً تاريخيــاً، متجسداً لتراه البشريــة، وتشارك فيه علنــاً، مع إحداث نــوع من الانقلاب بمجمل حركة التاريخ. ومــن وجهة النظر هذه لم تكــن الأسرار الوثنية عقبــة أمام نمو المسيحية بمقدار ما شكلت تربة خصبة ساعدت على ازدهارها.

غــير أن المسيحية، خلافاً لديانات الأســرار، أُعلنت واعتُرِف بها، بوصفها مصدر الخلاص الحقيقي حصرياً، مما وضع حداً لجميع الأسرار والأديان السابقة، وأبقاها وحدهــا واهبة المعرفة الصحيحة بالعــالم وأساساً سليماً للأخــلاق. مثل هذا الزعم كان حاسمــاً في انتصــار المسيحيــة في المراحل الأخيرة من حياة العــالم الكلاسيكي. فقــط بهذه الطريقــة أمكن حل جملة مخاوف الحقبة الهلينستيــة، بتعدديتها الدينية والفلسفيــة المتصارعة، وبمدنهــا الكبيرة الغارقة في فوضــى تزاحم المحرومين، ومن لا جــذور لهم، في بوتقــة اليقينيات الجديدة. وفرت المسيحيــة للإنسانية وطناً كونياً، وجماعــة دائمــة، وطريقة حيــاة محددة بوضــوح، مستندة جميعــاً إلى ضمانة نصية ومؤسسية ذات صدقية كونية.

امتــد تمثل المسيحيــة للأسرار والألغاز إلى سائر الآلهــة الوثنية أيضاً؛ لأن الآلهة الكلاسيكية ما لبثت، مع قيام العالم اليوناني - الروماني تدريجياً باعتناق المسيحية، أن أُدخلــت، بوعــي أو دونه، في التسلسل الهرمي المسيحــي (كما كان سيحصل لاحقاً مــع آلهة الجرمان وآلهة ثقافات أخرى اخترقها الغــرب المسيحي). تم الحفاظ على طبائعهــا ومواصفاتهــا ولكنها باتــت الآن مفهومــة ومستوعبة في السيــاق المسيحي، كمــا بالنسبــة إلى شخصيات المسيح (**أبولو، وبرميثيوس**، مثلاً، جنباً إلى جنب مع **بيرسيوس، أورفيوس، ديونيسوس، هرقل، أطلس، أدونيس، إيروس، سول، ميترا، آتيس، أوزيريس**)، الرب (**زيوس، كوزنوس، أورانوس، سارابيس**)، العذراء مريم

(**الماغنا ماتر، أفروديت، آرتيمس، هيرا، رهيا، بيرسفون، ديميتر، غايا، سيميل، إيزيس**)، الروح القدس (**أبولو، ديونيسوس، أورفيوس**، إضافةً إلى جوانب من إلهات مثيرة)، الشيطان [إبليس] (**بان، هاديس، بروميثيوس، ديونيسوس**)، وجيش من الملائكة والقديسين (اختلاط المريخ مع **ميكائيل** كبير الملائكة، أطلس مع القديس كريستوفر). وكما انبثق الفهم الديني المسيحي من الخيال الكلاسيكي على تعدد الآلهة، فإن الجوانب المختلفة لأي إله وثني معقد منفرد جرى عطفها على جوانب موازية للثالوث، أو، في حال نسخة الظل عن أي إله وثني، على الشيطان. بات أبولو، إله الشمس المقدس، الأمير المضيء للسماوات، يُرى سلفاً وثنياً للمسيح، في حين أن أبولو، جالب النور المباغت ومانح النبوءة والكهانات صار يُعد الحضور المؤكد لروح القدس. أما **برميثيوس**، محرر البشرية المُعاني فقد ذاب الآن في شخصية المسيح، في حين أن بروميثيوس المتغطرس الثائر على الرب ذاب في شخص إبليس (لوسيفر). وروح الحيازة النشوى المعطوفة من قَبْلُ على ديونيسوس تم إضفاؤها على الروح القدس، أما **ديونيسوس** إله الموت والبعث المنقذ والمضحي بالذات، فقد تحول الآن إلى المسيح، في حين أن **ديونيسوس** ذلك الإله الشيطاني للطاقة الأولية السائبة والحماسة الهائلة المجسد لجيش الغرائز الشبقية والعدائية المنفلتة بات يُنظر إليه الآن على أنه الشيطان.

جرى، إذًا، قلب الآلهة الأسطورية القديمة إلى سلسلة الشخصيات الراسخة عَقَدِيًّا المؤلفة للهيكل أو المحفل المسيحي. كذلك برز تصور جديد لحقيقة الروح. فالروايات والنصوص الوصفية المتحدثة عن واقع السماء والكائنات السماوية المقدسة، تلك التي كانت أساطير في الحقبة الوثنية – قابلة للتعديل، بعيدة عن الجمود والدوغمائية، منفتحة على التجديد الخيالي والتحويل الابتكاري، خاضعة لصياغات متضاربة وتفسيرات فكرية متعددة – باتت الآن مفهوماً بامتياز على أنها حقائق تاريخية وحرفية مطلقة، وقد تم بذل كل الجهود الممكنة من أجل توضيح ومنهجة تلك الحقائق وصبها في سلسلة من الصيغ العَقَدِيَّة الثابتة التي لا تقبل التغيير. وعلى النقيض من الآلهة الوثنية التي بقيت طبائعها ميالة إلى أن تكون غامضة داخلياً –خيرة وشريرة،

جانوسيـة الوجوه، متبدلة وفقاً للسياق- لم تعـد الشخصيات المسيحية الجديدة، أقله في العقيـدة الرسميـة، متمتعة بمثل هذا القدر من الغموض، بل صارت محافظة على طبائـع ثابتة متحالفة، إما مـع الخير أو مع الشر. فالمسرحية الدرامية الأم للمسيحية، مثلهـا مثل نظيرتهـا اليهودية (إضافـة إلى قريبتها الجنينية الفارسيـة، تلك الديانة الزرادشتيـة الاستثنائية في ثنائيتهـا)، متمركزة على المجابهـة التاريخية بين مبدأي الخير والشـر. وثنائية المسيحية القائمة على الخير والشـر، على الرب والشيطان، لم تكـن، في النهايـة، إلا إحدى ثمار أَحَديتها؛ لأن وجود الشيطـان متوقف، آخر المطاف، على الرب **خالق** الجميع الأعلى **وسيدهم**.

بالمقارنـة مع النظـرة الوثنية، كانت النظرة المسيحيـة إلى العالم لا تزال قائمة علـى مبدأ متعالٍ، ولكنها الآن باتت بنية أحادية بصرامة، محكومة برب واحد على نحوٍ مطلق. بين اليونانيين كان أفلاطون الأكثر أحدية، أي الأرسخ إيماناً بالتوحيد، غـير أن مقولتي «الـرب» و«الأرباب» كانتا، حتـى بالنسبة إليـه، قابلتين للتبادل في الكثـير من الأحيـان. أما بالنسبة إلى المسيحيين فلم يكـن ثمة أي غموض من هذا القبيـل. بقـي المتعـالي أولياً، كما عنـد أفلاطون، ولكنـه لم يعد تعددياً. فالأفكار مشتقة، والآلهة محظورة.

برغم تأثير الأفلاطونية في نمط تفكير أوغسطين، فإن المقاربة المسيحية للحقيقة بقيـت مختلفة جوهرياً عن نظيرتها لدى الفلاسفة الكلاسيكيين. من المؤكد أن العقل أدى دوراً في الروحانية المسيحية؛ لأن الإنسان، كما أكد كلمنت لم يكن قادراً على تلقي **اللوغوس** (الوحي) الموحى بـه إلا بفضل ما يتمتع به من عقل. فعقل الإنسان بالذات هـو من هبات خلق الرب الأصليـة، حيث كان **اللوغوس** (الـكلام) أداة لمبدأ الخلق. وعملية اللحم الأرقى التي جمعت بها المسيحية بين الذكاء والعبادة (بين العلم والدين بلغة العصر)، مقارنة بثنائية الوثنيين الأكثر غموضاً، هي التي اضطلعت بدور حاسم في تعـالي المسيحية في الحقبـة الكلاسيكية المتأخرة. ولكن المقاربـة المسيحية بقيت، علـى النقيض من البرنامـج الفلسفي الإغريقي القائم علـى التطوير الفكري الذاتي

المستقل نسبة إلى العالم التجريبي والكرة المتعالية للمعرفة المطلقة الناظمة لذلك العالم، متركزة على بوح شخص واحد، يسوع المسيح، فراح المسيحي المؤمن يلتمس الاستنارة من قراءة النص المقدس. الفكر وحده لم يكن كافياً للإحاطة بحقيقة الكون، خلافاً لاعتقاد عدد كبير من الفلاسفة اليونانيين من أمثال **أرسطوطاليس**، حتى ولو جرى تعزيزه بالطهر الأخلاقي الذي شدد عليه كل من **أفلاطون وأفلوطين**. فحسب الفهم المسيحي إن الدور المحوري عائد للإيمان - احتضان الروح الفاعل، حر الإرادة لحقيقة المسيح المتجلية، مع التزام الإنسان بالعقيدة والثقة، فاعلاً في تفاعل غريب مع نعمة الرب الممنوحة مجاناً. لقد تحدثت المسيحية عن نوع من العلاقة الشخصية مع المتعالي. **فاللوغوس** لم يكن عقلاً لا شخصياً مجرداً، بل هو كلام شخصي مقدس، فِعْلُ حب من جانب الرب، متاح بَوْحاً لكل جوهر الإنسان والكون الروحي المقدس. إن **اللوغوس** هو **كلام** الرب المنقذ؛ أن تؤمن يعني أن تُنقَذ.

وهكذا، فإن الإيمان كان الوسيلة الأولى، والعقل الوسيلة الثانية البعيدة، لإدراك المعنى الأعمق للأشياء. عاش **أوغسطين** اهتداءه الأخير، بوصفه تغلباً على مزاعمه الفكرية المتطورة المتقنة، واحتضاناً متواضعاً للعقيدة المسيحية. باستثناء مفاعيل الأفلاطونية، لم تتمخض تأثيرات التطور الفلسفي الخالص لذكاء أوغسطين إلا عن مضاعفة نزوع الأخير إلى الشك فيما يخص إمكانية اكتشاف الحقيقة. فبالنسبة إلى **أوغسطين**، حتى الفلسفة الأفلاطونية الجديدة، وهي الأعمق والأرسخ دينياً بين المنظومات الفكرية الوثنية، مشوبة بعيوبها ونواقصها الأساسية؛ لأنه لم يهتدِ إلى تلك الحميمية الشخصية مع الرب التي كان يرغب فيها، ولا إلى ذلك البوح الإعجازي الذي كان فيه **اللوغوس** المتعالي قد تحول إلى جسد في أي مكان[20]. أما قراءة رسائل بولس فقد كانت، على النقيض من ذلك، هي التي أيقظت في أوغسطين المعرفة التي عاشها، بوصفها محرِّرة روحياً. ومن تلك المحطة سارع إلى اعتماد إستراتيجية جديدة لامتلاك الحقيقة: «لدي إيمان كي أفهم». وهنا بالذات كشفت نظرية المعرفة عند أوغسطين عن أساسها اليهودي؛ لأن المعرفة الصحيحة متوقفة آخر المطاف على علاقة الإنسان السليمة مع الرب. فدون الالتزام المسبق بالرب، يبقى مجمل مسار البحث والإدراك

الفكريين معرضاً للانحراف نحو اتجاهات زاخرة بالأخطاء الكارثية.

في النظرة المسيحية، ربما كان العقل البشري ذات يوم كافياً حين كان لا يزال، وهو في الفردوس أو في الحالة الفردوسية، متمتعاً بتناغمه الأصلي مع الذكاء الإلهي. أما بعد تمرد الإنسان وسقوطه من النعيم، فإن عقله خبا باطراد وباتت الحاجة إلى الإلهام مطلقة. وكان من شأن التعويل، وتطوير أي عقل بشري حصري أن يبقى محكوماً بالتمخض عن جهل وخطأ خطرين. وبالفعل فإن سقوط الإنسان بالذات ترتب على قيامه بسرقة الثمرة من **شجرة معرفة الخير والشر**، مُقْدماً على خطوته الأولى والمصيرية باتجاه الاستقلال الفكري والاعتماد على الذات بكبرياء، وعلى انتهاك أخلاقي لسيادة الرب الحصرية. وباختطافه لمثل هذه المعرفة من نظام السماء، كان الإنسان قد أصيب، بدلاً من أن يستفيد، بالعمى الفكري، وبات عاجزاً عن الاستنارة إلا بنعمة الرب. وهكذا، فإن العقلانية العلمانية ذات الشأن العظيم لدى اليونانيين عُدت ذات قيمة مثيرة للشك فيما يخص الخلاص، مع بقاء الملاحظة التجريبية غير ذات علاقة إلى حد بعيد إلا بوصفها عاملاً يساعد على التحسن الأخلاقي. وفي سياق النظام الجديد، كان الإيمان البريء لأي طفل متفوقاً على المحاكمات المعقدة والمبهمة لأي مفكر خبير بشؤون الحياة وشجونها. واصل لاهوتيو المسيحية تفلسفهم، ودراستهم للقدماء، ومناقشتهم لجملة الأحاجي العقدية – ولكن داخل الحدود المرسومة للعقيدة الجامدة (الدوغما) المسيحية على الدوام. فروع المعرفة كلها باتت ملحقة باللاهوت الذي أصبح الاختصاص البحثي الأهم، والذي اهتدى إلى أساسه الراسخ وقاعدته الثابتة في الإيمان.

بمعنى من المعاني، كان التركيز المسيحي أضيق وأكثر حدة من نظيره اليوناني، ومنطوياً على قدر أقل من الحاجة إلى دائرة تعليمية واسعة. تمثلت الحقيقة الميتافيزيقية العليا في واقع **التجسد** (تجسد المسيح): التدخل الإلهي الإعجازي في التاريخ الإنساني، ذلك التدخل الذي أفضى إلى تحرير الإنسانية وإعادة توحيد العالم المادي بنظيره الروحي، العالم الفاني بنظيره الخالد، المخلوق **بالخالق**. ومجرد التقاط ذلك الواقع المدهش كان كافياً لإشباع الجوع الفلسفي، وهو الواقع الذي كان موصوفاً

وصفاً تفصيلياً كاملاً في أسفار الكنيسة. إن المسيح هو مصدر الحقيقة الحصري في الكون، مبدأ الحقيقة المدرك للأشياء كلها بالذات. شمس **اللوغوس** السماوي تضيء كل شيء. يضاف أن الوعي الذاتي الجديد في الحقبة الكلاسيكية المتأخرة والمسيحية الأولى، وهو متبلور بأكثر الأشكال دقة، بمعنى حرص الروح الفردية على ضمان مصيرها الروحاني، أكثر أهمية بما لا يقاس من اهتمام الذكاء العقلاني بالتفكير النظري أو الدراسة التجريبية. وحده الإيمان بمعجزة افتداء المسيح كان كافياً لجلب أعمق الحقائق المنقذة للإنسان. وعلى الرغم من تبحره، وتقويمه لجملة إنجازات الإغريقيين الفكرية والعلمية، فإن **أوغسطين** قد أعلن بالفم الملآن ما يأتي:

> حين يُطرح سؤال: ما الذي يجب علينا أن نؤمن به فيما يخص الدين؟، فليس من الضروري، إذًا، أن نغوص عميقاً في طبيعة الأشياء، كما فعل أولئك الذين يسميهم اليونانيون **بالفيزيائيين**؛ كما ليس ثمة ما يدعونا إلى الخوف من أن يبقى المسيحي جاهلاً بقوة العناصر وعددها، وبحركة الأجرام السماوية، ونظامها، وخسوفها، وبشكل السماوات، وبمختلف أجناس وطبائع الحيوانات، النباتات، الصخور، الينابيع، الأنهار، الجبال، وبالكرونولوجيا والمسافات، وبمؤشرات الأعاصير الموشكة، وبألف شيء آخر من الأشياء التي نجح أولئك الفلاسفة في اكتشافها أو توهموا أنهم فعلوا.... يكفي المسيحي أن يؤمن بأن السبب الوحيد لسائر المخلوقات، السماوية منها والأرضية، المرئية منها وغير المرئية، إن هو إلا خير الخالق، الرب الحقيقي الواحد، وبأن لا شيء موجود، باستثنائه **هو**، إلا وقد استمد وجوده منه **هو**[21].

مع صعود المسيحية، لم تعد الحالة المتدهورة أساساً للعلوم في الحقبة الرومانية المتأخرة تحظى إلا بالقليل من التشجيع على تحقيق المزيد من التطورات الجديدة. فأوائل المسيحيين لم يخضعوا لأي إلحاح فكري دافع إلى «إنقاذ ظواهر» هذا العالم، لعدم انطواء مثل هذا العالم الظاهري على أي معنى، مقارنة بالواقع الروحي المتعالي. بعبارةٍ أدق، كان المنقذ الكلي، المسيح، قد أنقذ الظواهر، فلم يبقَ ما يدعو

إلى الرياضيات والفلك لأداء تلك المهمة. ودراسة الفلك خصوصاً، لارتباطه بالتنجيم والدين الكوني في الحقبة الهلينستية، تعرضت للإهمال. وكانت قد توافرت للعبرانيين التوحيديين فرصة لإدانة المنجمين الأجانب وشجبهم، وقد تمادى هذا الموقف في السياق المسيحي. فالتنجيم، بآلهته الكوكبيين، مع هالة الوثنية ذات الآلهة المتعددة، وبانفتاحه على نوع من الحتمية مناقض لكل من نعمة السماء ومسؤولية الإنسان، أُدين رسمياً من قبل المجالس الكنسية (مع إصرار **أوغسطين** الاستثنائي على دحض «الرياضيات» التنجيمية)، مما أدى إلى تدهوره التدريجي برغم مدافعيه اللاهوتيين بين الحين والآخر. لم تكن السماوات، في النظرة المسيحية إلى العالم، إلا التعبير المدرك بورعٍ عن مجد الرب وعلى مستوى أكثر شعبية، مقرات الإقامة للرب وملائكته وقديسيه، والملكوت الذي سيعود منه المسيح في مجيئه الثاني. فُهم العالم كله ببساطة وعلى نحوٍ طاغٍ بوصفه خلقاً للرب، فما عادت الجهود الرامية إلى تحقيق الاختراق العلمي لمنطق الطبيعة المتأصل ضرورية أو مناسبة على ما بدا. فالمنطق الحقيقي للطبيعة يعرفه الرب، وما يستطيع الإنسان أن يعرفه عن ذلك المنطق تم الكشف عنه في الإنجيل.

ما من جانب من جوانب الكون إلا وهو خاضع لمشيئة الرب. ولأن التدخل الإعجازي وارد دائماً، فإن عمليات الطبيعة دائمة الخضوع لمشيئة السماء، لا لقوانين طبيعية مجردة. فمواثيق الأسفار المقدسة إن هي، إذًا، إلا الخزائن النهائية والثابتة للحقيقة الكونية، لتلك الحقيقة المطلقة التي لن تستطيع أي جهود إنسانية لاحقة تدعيمها أو تعديلها، أو الثورة عليها. وما علاقة المسيحي الصالح بالرب إلا علاقة الطفل بالأب، طفل صغير جداً وساذج مع أب أضخم بما لا يقاس، كلي المعرفة، كلي القدرة. وبسبب المسافة الكبيرة الفاصلة بين الخالق والمخلوق، تبقى قدرة الإنسان على إدراك آليات الخلق الداخلية محدودة جداً. ومقاربة الحقيقة تتم، إذًا، في المقام الأول، لا عبر بحث فكري محتوم ذاتياً، بل من خلال النص المقدس والصلاة، من خلال الإيمان بتعاليم الكنيسة.

كان كل من **بولس** و**أوغسطين** شاهداً على النفوذ والتفوق الطاغيين لمشيئة الرب، على صعيد قدرة حكم الرب على التدمير الروحي لأي نفس غير طاهرة. كل من الرجلين عاش هدايته الدينية الخاصة -**بولس** في الطريق إلى دمشق، **أوغسطين** في إحدى حدائق ميلانو- بوصفها نقطة انعطاف بيوغرافية (حياتية) مسرحية - درامية، مفروضة عنوة جراء تدخل إرادة السماء. فقط بفعل تدخل كهذا جرى إنقاذهما من مواصلة حياة من الممكن الآن رؤية وجهتها المحددة ذاتياً، عبثية ومدمِّرة. في ضوء هاتين التجربتين، باتت فاعلية الإنسان المجردة كلها، سواء أكانت إرادة مستقلة أم فضولاً فكرياً، تبدو ثانوية - سطحية، مضلّلة، بل خاطئة - إلا إذا كانت مؤهلة لأن تفضي إلى فاعلية موجهة من الرب مئة في المئة: فالرب هو المنبع الحصري للخير كله كما لخلاص الإنسان. والبطولة كلها، تلك الميزة المحورية للشخصية اليونانية، باتت الآن متمركزة في شخص المسيح. إن خضوع الإنسان للسماء هو الأولوية الوجودية الوحيدة. ما عداه هراء وعبث. أما الشهادة، الاستسلام الكلي للرب، فتمثل أعلى المُثل المسيحية وأرقاها. وبما أن المسيح كان ناكراً للذات على أعلى المستويات، فإن على جميع المسيحيين أن يجاهدوا ليكونوا شبيهين بمخلصهم. التواضع، لا الكبرياء، هو الفضيلة المسيحية المميزة، المطلوبة للخلاص. نكران الذات على صعيدي الفعل والقول، الإخلاص للرب وخدمة الآخرين: فقط بمثل العمليات التفريغية للذات من شأن قوة نعمة الرب أن تتوغل في عمق الروح وتحوّلها.

ومع ذلك، فإن الإنسانية لم تبدُ متضائلة بفعل مثل هذه العلاقة غير المتكافئة؛ لأن لُطف الرب وحبه كانا، وحدهما، كافيين مئة في المئة لتلبية وإشباع حاجات الإنسانية الحقيقية ورغباتها العميقة. وبالمقارنة مع هذه النعم السماوية لم تكن جميع التعويضات العالمية - الأرضية سوى نسخ باهتة، غير ذات قيمة نهائية. هنا بالذات بادر المسيحيون، بالفعل، إلى إطلاق شعارهم المدوي: الرب يحب البشر. لم يكن الرب مصدر النظام العالمي وحسب، وهدف التطلع الفلسفي وحسب، والسبب الأول لكل ما هو موجود وحسب. كما أنه لم يكن مجرد الحاكم اللغز للكون والقاضي الصارم لتاريخ البشر. ففي شخص يسوع كان الرب قد خرج من تعاليه وكشف عبر الزمن كله والبشرية كلها عن حبه اللانهائي لمخلوقاته. هنا كان الأساس المناسب لطريقة حياة جديدة، مستندًا

إلى حب الرب، الذي تمخضت كونيته عن خلق جماعة جديدة من البشر.

أورثت المسيحية أبناءها، إذًا، إحساساً طاغياً بنوع من الاهتمام المباشر بالشؤون الإنسانية، مع اهتمام فاعل بكل روح إنسانية بغض النظر عن مستوى الذكاء أو الثقافة المعطوفين على المشروع الروحاني، ودون حساب للقوة المادية، والجمال، أو الموقع الاجتماعي. وعلى النقيض من التركيز الهليني على الأبطال العظماء والفلاسفة النادرين، دأبت المسيحية على تعميم الخلاص، مؤكدة توفرها للعبيد كما للملوك، وللأرواح البسيطة كما لكبار المفكرين، وللبشعين كما للجميلين، وللمرضى والمعذبين كما للأقوياء والمحظوظين، وميّالة حتى إلى قلب التراتبات القديمة رأساً على عقب. في المسيح بالذات، تم الإجهاز على جميع أشكال الانقسامات بين البشر –من برابرة ويونانيين، من يهود وأغراب (غير يهود)، من سادة وعبيد، من ذكور وإناث– الذين أصبحوا الآن كتلة واحدة. وحكمة المسيح وبطولته النهائيتين جعلتا الخلاص ممكناً بالنسبة إلى الجميع، لا بالنسبة إلى قلة فقط: لقد كان المسيح الشمس الغامرة للإنسانية كلها بنورها. لذا فإن المسيحية أضفت قيمة عالية على كل نفس منفردة، غير أن المثل الأعلى الإغريقي للفرد المحدد لمصيره وللعبقرية البطولية تعرض، في هذا السياق، لنوع من التضاؤل لمصلحة هوية مسيحية جماعية. ومثل هذا الرفع للنفس المشاعية، والانعكاس الإنساني لملكوت السماء، بالاستناد إلى الحب المشترك للرب والإيمان بافتداء المسيح، شجع سمواً غيرياً، وإخضاعاً، أحياناً، لذات الفرد في سبيل ولاء أكبر لخير الآخرين ولإرادة الرب. غير أن المسيحية قامت من الجهة المقابلة، إذ منحت نفس الفرد صفتي الخلود والقيمة، بتشجيع نمو الوعي الفردي، والمسؤولية الذاتية، والاستقلال الشخصي، نسبة إلى القوى الزمنية، وهي جميعاً سمات حاسمة بالنسبة إلى تشكل الشخصية الغربية.

جلبت المسيحية في تعاليمها الأخلاقية إلى العالم الوثني إحساساً جديداً بقدسية الحياة الإنسانية كلها، وبالقيمة الروحية للعائلة، وبالتفوق الروحي لنكران الذات على الإنجاز الأناني، وبالقدسية الأرضية على الطمع الأرضي، وباللطف والعفو على العنف والانتقام، مع التنديد بالقتل، والانتحار، ووأد الأطفال، وذبح الأسرى، وإذلال العبيد، والتفلت الجنسي والبغاء، ومشاهد السيرك الدامية، كل ذلك في ظل الوعي

الجديد بحب الرب للإنسانية، والطهارة الأخلاقية التي يستلزمها الحب في النفس البشرية. لم تكن المحبة المسيحية، السماوية منها أو الإنسانية، على علاقة قوية بملكوت أفروديت، ولا حتى بإيروس الفلاسفة في المقام الأول، بل المحبة المتبلورة في المسيح، التي عبرت عن نفسها عبرا لتضحية، والمعاناة، والرحمة الكونية الشاملة. ظل المثل الأعلى الأخلاقي المسيحي للخير والإحسان موضوعاً للتبشير والامتثال الواسع أحياناً، وهو مثل أعلى ليس بالتأكيد غائباً عن قائمة الضرورات الأخلاقية في الفلسفة اليونانية -لا سيما في الرواقية التي كانت سابقة للأخلاق المسيحية من نواحٍ كثيرة- ولكنه الآن قد غدا ذا نفوذ أكثر طغياناً على الثقافة الجماهيرية في الحقبة المسيحية، مقارنة بالأخلاق الفلسفية اليونانية في العالم الكلاسيكي.

جرى في المسيحية إبدال الصفة الفكرية الأقوى للمفهوم الإغريقي لكبير الآلهة والصعود الفردي للفيلسوف، مهما كانت تلك العملية حماسية بالنسبة إلى (**أفلاطون وأفلوطين**) بالحميمية العاطفية والمشتركة جماعياً لعلاقة شخصية، عائلية مع الخالق، وبالاحتضان الورع للحقيقة المسيحية المتجلية. وعلى النقيض من قرون الحيرة الميتافيزيقية السابقة، بادرت المسيحية إلى تقديم حل ناجز مئة بالمئة لمعضلة الإنسان. فأشكال الغموض والفوضى الزاخرة باحتمالات الإزعاج لأي بحث فلسفي خاص دون منارات إرشاد دينية جرى إبدالها الآن بكوزمولوجيا يقينية على نحوٍ مطلق ونظام خلاص مكرس مؤسسياً في متناول الجميع.

إلا أن البحث الفلسفي صار يُنظر إليه من قبل الكنيسة المبكرة، مرة أخرى، بعد أن أصبحت الحقيقة على هذه الدرجة من الرسوخ، بوصفه أقل شأناً بالنسبة إلى التنمية الروحية، فتم تقييد الحرية الدينية، وقد باتت غير ذات علاقة أساسية، بعناية[22]. فالحرية الحقيقية موجودة، لا في التأمل الفكري اللامحدود، بل في نعمة المسيح الإنقاذية. ما كانت الديانة المسيحية لتعد مناظِرة للفلسفة الهلينية، بله الديانات الوثنية؛ لأن وحيها الفريد كان منطوياً على أهمية قصوى بالنسبة إلى الإنسان والعالم. فاللغز المسيحي لم يكن النتاج القابل للمناقشة والمحاكمة الميتافيزيقية الأصيلة، ولا أي بديل نافذ آخر من جملة الألغاز والأساطير الوثنية المختلفة. كانت

المسيحية بالأحرى الإعـلان الصادق والأصيل لحقيقة الرب الأعلى المطلقة، التي من شـأن الإيمان بها أن يغير ليس قَدَر الفرد الشخصـي وحسب، بل ومصير العالم. ثمة عقيـدة مقدسة باتت في عهـدة المسيحيين، ومن شأن الجدارة بتلك الثقة، إضافةً إلى تماسك تلك العقيدة، أن تكون بحاجة إلى الصيانة مهما بلغت التكاليف. كان الرهان هو الخلاص الأبدي للإنسانية جمعاء.

حمايـة العقيدة كانت، إذًا، أولى أولويات أي مسألة من مسائل الحوار الفلسفي أو الدينـي؛ ومن هنا فإن مثل ذلك الحوار كثيراً مـا كان يتعرض للاختزال خشية تسلل شيطـان الشك أو الضلال وحصوله على موطئ قـدم في العقول الهشة للمؤمنين. أما الصيغ الأكثر نخبوية على الصعيد الفكري والأقل جموداً عَقَدِيًّا للمسيحية المبكرة، مثل الحـركات الغنوسطية واسعة الانتشار، فتعرضت للإدانة، وما لبثت أن قُمعت بضراوة لم تكـن أقل شراسة مـن أساليب قمع الديانـات الوثنيـة. إن الغنوسطيين المتمردين بالتحديـد هم الذيـن ضغطوا على الكنيسـة الرسمية لإجبارها علـى اعتماد تعريف صارم للعقيدة المسيحية في القرنين الميلاديين الثاني والثالث. فحماية ما كانت كنيسة مـا بعد الرسل والحواريين تـراه الجوهر الوحيد، والهش، بمعنـى من المعاني، للوحي المسيحي في مواجهة أعداد متزايدة من الطوائف والمذاهب المتصارعة، بما أقنع أوائل المسيحيـين بضرورة ترسيخ معتقـدات المؤمنين وترسيخها، ونشرهـا، ودعمها ببنية كنسية ذات مرجعية وسلطة. وهكذا، فإن الكنيسة المؤسسية، بوصفها التجسيد الحي للإدارة والتدبير المسيحيين، باتت الحامية الرسمية للحقيقة النهائية ومحكمة النقض الأعلـى في أي قضايا غامضة، ليـس فقط المحكمة، بل والادعاء العام والأداة العقابية تحت تصرف الناموس الديني.

تمثل الظـل الجانبي لادعاء الديـن المسيحي للكونية الشاملـة في تعصبه. فنظرة الكنيسة إلى اعتناق المسيحية، بوصفه ممارسة دينية خاصة متوقفة كلياً على الحرية الفرديـة والإيمـان العفـوي، كانت مناقضـة مئة في المئـة لخطة دائمة التكـرر قائمة علـى فرض الامتثال الدينـي بالقوة. ومع الهيمنـة النهائية للمسيحيـة نهاية الحقبة الكلاسيكيـة، تعرضت المعابد الوثنية للهدم المنهجي والأكاديميات الفلسفية للإغلاق رسميـاً[23]. تماماً كمـا النزعة الطهرية الأخلاقية التي كانـت المسيحية قد ورثتها عن

اليهودية وقفت في وجه الشهوانية السائبة واللا أخلاقية اللتين رأتهما في الثقافة الوثنية. كذلك، وبقدرٍ مساوٍ من التشدد، دأبت المسيحية على تطوير طهرية لاهوتية وقفت سداً في وجه تعاليم الفلسفة الوثنية وأي تصورات ضلالية ومنحرفة للحقيقة المسيحية. لم يكن ثمة عدد كبير من الطرق الصحيحة، ولا عدد كبير من الآلهة والإلهات، المختلفة من مكان إلى آخر ومن شخص إلى غيره. لم يكن ثمة سوى رب واحد وسماء واحدة، وديانة صحيحة واحدة، وخطة إنقاذية واحدة للعالم كله. الإنسانية كلها جديرة بأن تعرف وتتبنى هذه العقيدة الإنقاذية المخلِّصة الواحدة. وهكذا، فإن تلك التعددية للثقافة الكلاسيكية، بمدارسها الفلسفية الكثيرة، وبأساطيرها ذوات الآلهة المتعددة المتنوعة، وبحشد دياناتها السرية، هي التي أخلت مكانها لنظام متشدد في توحيديته، في أحادية إلهه، رب واحد، كنيسة واحدة، حقيقة واحدة.

## التناقضات في قلب الرؤية المسيحية

قد نشرع هنا في تلمس الخطوط العريضة لوجهين واضحي الاختلاف للنظرة المسيحية في العالم. يمكن للمرء، بالفعل، أن يتعرف، من الانطباع الأول، على نظرتين عالميتين كليتي التباين متعايشتين ومتقاطعتين في المسيحية، نظرتين في حالة توتر مستمر، إحداهما مع الأخرى: فيما الأولى مفرطة في التفاؤل وحاضنة للجميع، تتميز نظيرتها بالصرامة في الأحكام، وكثرة القيود والضوابط، والنزوع إلى اعتماد نوع من التشاؤمية الثنائية. غير أن النظرتين بقيتا، في الحقيقة، وثيقتي الترابط والالتحام، ووجهين للقطعة النقدية نفسها، ضوءاً وظلاً. فالكنيسة منطوية على النظرتين، وقد كانت، من حيث الجوهر نقطة تقاطعهما الفعلي. النظرتان كلتاهما خارجتان من متن الإنجيل، من متون العهدين القديم والجديد، وقد تمَّ التعبير عنهما، كلتيهما، بالتزامن، وإن بنسب متفاوتة، في كتابات جميع كبار اللاهوتيين، والمجالس، والتركيبات العقديَّة للكنيسة. ومهما يكن من أمر، فمن المجدي أن نبادر إلى التمييز بين النظرتين وتحديدهما كلٍّ على حدة، وصولاً إلى تسليط الضوء على بعض ملابسات وتعقيدات ومفارقات الرؤية المسيحية. فلنحاول أولاً وصف هذه الثنائية الداخلية، والانتقال بعد ذلك إلى فهم الأسلوب الذي اعتمدته الكنيسة لحلها.

التركيز في النظرة الأولى المطروحة هنا هو على أن المسيحية باتت ثورة روحية موجودة تواصل تقدمها التدريجي على طريق تحويل وتحرير كل من النفس الفردية والعالم في الضوء المشرق لمحبة الرب المتجلية. بهذا الفهم، لم تكن تضحية المسيح بذاته إلا إطلاقاً لعملية إعادة التوحيد الجذرية للإنسانية والعالم المخلوق بالرب، عملية إعادة توحيد متصورة مسبقاً ومطلقة من قبل المسيح وواصلة إلى الاستكمال في عصر قادم مع عودة المسيح. التشديد هنا هو على شمول عملية الافتداء، وعلى اتساع وقوة اللوغوس والروح، وعلى حلول الرب الحالي في الإنسان والعالم، وعلى الفرح والحرية الناتجين، بالنسبة إلى المؤمنين المسيحيين، أبناء الكنيسة، الجسم الحي للمسيح.

أما الوجه الآخر للنظرة، فمتمركز بقدرٍ أكبر من التأكيد على الاغتراب الحالي للإنسان والعالم عن الرب. وهو يشدد، من ثم على مستقبلية الخلاص وانتمائه إلى العالم الآخر، وعلى النهائية الوجودية (الأونطولوجية) لـ «آخرية» الرب، وعلى الحظر الصارم لسائر الأنشطة الدنيوية، من منطلق تزمت عقدي محدد من قبل الكنيسة المؤسسية، وخلاص ضيق الحدود مقتصر على نسبة صغيرة من الإنسانية مؤلفة لجماعة مؤمني الكنيسة. خلف هذه النزعات وأمامها ثمة حكم سلبي طاغٍ وكاسح فيما يخص الوضع الحالي للنفس الإنسانية وللعالم المخلوق، لا سيما قياساً مع كمال الرب كلي القدرة والمتعالي.

مرة أخرى، أي من وجهي هذا الاستقطاب الداخلي في الإطار المسيحي، لا ينفصل في أي وقت من الأوقات عن الآخر. فكل من **بولس وأوغسطين** أول اللاهوتيين القدماء وآخرهم الذين جددوا الديانة المسيحية المنقولة إلى الغرب، كانا معبرين عن النظرتين كلتيهما في حزمة غير قابلة للفك، وإن بقيت مهلهلة. ومع ذلك، فإن مما سينطوي على قيمة، لأن أوجه الاختلاف في التأكيد بين الطرفين كانت صارخة، ولأن المنظورين كثيراً ما بدوا مستمدين من منابع سايكولوجية مختلفة وتجارب دينية متباينة، تناولهما بوصفين منفصلين وشديدي الانقسام، كما لو كانا في الحقيقة كاملي التمايز أحدهما عن الآخر.

إن الوجه الأول الذي تجري معاينته هنا يهتدي إلى التعبير الأول عن نفسه في رسائل بولس الموجهة إلى الجاليات المسيحية الأولى في الكتاب المقدس وفقاً لإنجيل يوحنا. غير أن الأناجيل الثلاثة الأخرى وأعمال الرسل جاءت في الغالب مؤيدة لهذه النظرة، وما من مصدر واحد أحاط وحده بهذا المنظور من ألفه إلى يائه. أما البصيرة المعبر عنها في هذا الفهم فتمثلت في أن السماء كانت في المسيح قد دخلت العالم، وفي أن خلاص الإنسانية والطبيعة بات الآن وشيكاً. وإذا كانت اليهودية توقاً شديداً، فإن المسيحية كانت إشباعه المجيد. لقد تدفق ملكوت السماء على ميدان التاريخ وراح يحوله بنشاط، متدرجاً في إلزام الإنسان بالالتحاق بركب كمال جديد، وغير قابل للإدراك من قبل. فحياة المسيح، موته، وبعثه باتت في مرتبة معجزة العصور، والعاطفة المترتبة عليها أصبحت من ثم فرحاً وامتناناً زاخرين بالنشوة. المعركة الكبرى قد كُسبت، فالصليب هو رمز النصر. نجح المسيح في تحرير الجنس البشري الذي كان أسير جهله وخطئه هو. ولأن مبدأ القداسة والألوهية موجود في العالم ويصنع معجزاته، فإن محور البحث الروحي هو الاعتراف عن إيمان بصحة تلك الحقيقة العليا والمشاركة المباشرة، في ضوء هذا الإيمان الجديد، في عملية التكشف الألوهي أو السماوي. لقد أشرقت قدرة الملكوت القادم الإنقاذية في شخص المسيح الذي نجح نفوذه الكاريزمي في جمع سائر البشر داخل دائرة جماعة أو أسرة واحدة. أضفى المسيح على العالم حياة جديدة: هو نفسه كان حياة جديدة، نَفَس ما هو أبدي. ومن خلال آلام المسيح وُلد خلق جديد، متحقق داخل الإنسان وعبره. من شأن الأوج أن يتمثل في إيجاد سماء جديدة وأرض جديدة، وفي دمج الزمن المحدود بالأبدية.

في هذه النظرة، لم تكن «التوبة» التي حض عليها يسوع شرطاً مسبقاً بمقدار ما كانت نتيجة لمعايشة انبثاق فجر ملكوت السماء. لم تكن نَدَماً متراجعاً وباعثاً على الشلل بشأن أخطاء ماضية بمقدار ما كانت معانقة متقدمة للنظام الجديد، قادرة على جعل حياة المرء القديمة تبدو غير صادقة وعلى ضلال بالمقارنة. كانت نوعاً من العودة إلى المنبع السماوي الذي تتدفق منه البراءة كلها والبدايات الجديدة جميعها. فتجربة الخلاص المسيحية إن هي إلا حركة انقلابية داخلية مستندة إلى نوع من

التنبه إلى ما بات في طور الولادة، داخل الفرد وداخل العالم. في نظر كثيرين من أوائل المسيحيين، كان زمن الفرح قد بات حاضراً.

غير أن هذا الوحي نفسه، كان، كما بيّن القطب الثاني للرؤية المسيحية بوضوح، يفضي إلى نتائج أخرى، شديدة الاختلاف، حيث تجلّى فعل المسيح الإنقاذي في عالم مصاب بلعنة الاغتراب، بوصفه جزءاً من معركة درامية (مسرحية مثيرة) بين الخير والشر، معركة لم تترسخ حصيلتها بأي من الأشكال، ولا هي مضمونة بالنسبة إلى الجميع. كنوع من تحقيق التوازن مع العنصر الأكثر إيجابية، بهجة، ووحدة في المسيحية، لم يعمد جزء كبير من العهد القديم إلى تأكيد تحول إنقاذي بات متحققاً بمقدار ما بقي مصراً على المطالبة بيقظة متوثبة واستقامة رفيعة المستوى انتظاراً لعودة المسيح، ولا سيما في ظل المخاطر التي ينطوي عليها العالم الحالي الفاسد ومهالك اللعنة الأبدية. ومثل هذه النظرة تم التعبير عنها ليس فقط في الأناجيل الثلاثة المتشابهة -أناجيل متى، ومرقص، ولوقا- بل وفي كتابات بولس ويوحنا أيضاً. يجري التأكيد هنا على أن الإنقاذ النهائي للإنسانية ينتظر فاعلية الرب الخارجية في المستقبل، عبر نهاية رؤيوية (كارثية) للتاريخ ومن خلال المجيء الثاني [للمسيح]. أما الحرب الدائرة بين المسيح والشيطان، فمازالت مستمرة، وجملة المخاطر والعذابات الهائلة في زماننا لا يخففها إلا الإيمان بيسوع التاريخي، وبعودته المخلِّصة، بدلاً من شعور يوحنا الواثق بانتصار المسيح الحاسم على الشر والموت، بحلول الرب الجديد في العالم، وبحصة المؤمن المضمونة في الحياة الأبدية للمسيح الممجَّد. الأمل بالمخلِّص طاغٍ على طريق الاستقطاب المسيحي، غير أن الحاضر يعاني، في النظرة الثانية، من نوع من السجن في ظلام روحي يجعل الأمل في الإنقاذ أكثر إلحاحاً، بل وحتى يائساً، ويصر على إقحام موقع الافتداء في المستقبل وفي نشاط الرب الخارجي على نحوٍ أكثر حصرية.

هذا الجانب الاستباقي الكامل للمسيحية شبيه بعناصر معينة مهيمنة في اليهودية، مكّنتها من مواصلة التأسيس للرؤية المسيحية. فتجربة طغيان الشر على الإنسان، الاغتراب العميق بين الإنسان والسماء، الإحساس بالانتظار الكئيب لإشارة محددة

عن حضور الرب الإنقاذي في العالم، الحاجة إلى الالتزام بالغ الحساسية بالناموس، محاولة الحفاظ على أقلية طاهرة ومؤمنة في مواجهة عمليات الاجتياح الآتية من البيئة المعادية والملوّثة، توقع عقاب رؤيوي (كارثي)، هذه العناصر جميعاً وهي تنتمي إلى الوعي اليهودي برزت من جديد في الفهم المسيحي. وإيقاع الرؤية الدينية ذاك ما لبث، بدوره، أن تعزز وتم وضعه في سياق جديد جراء التأخير المستمر لمجيء المسيح الثاني، وبفعل التطور التاريخي واللاهوتي المصاحب لهذا التأخير.

بشكله الأكثر تطرفاً، وهو أمر كان مميِّزاً لتيار التراث المسيحي التقليدي في الغرب بعد أوغسطين، دأب هذا الفهم الأكثر ثنائية على تأكيد تفاهة البشر المتأصلة وعجزهم من ثم عن تجربة طاقة المسيح الخلاصية في هذه الحياة، إلا بطريقة استباقية عبر الكنيسة. وعاكسة ومضخمة التصور اليهودي لسقوط آدم وما ترتب على ذلك من انفصال بين الرب والإنسان، قامت الكنيسة المسيحية بغرس شعور صريح بالخطيئة والذنب، بخطر بل باحتمال عذاب جهنم، وبنوع من الحاجة إلى مراعاة دقيقة للقانون الديني، مع تبرير محدد مؤسسياً للروح أمام الرب من ثم، في الأذهان. أما الصورة النشوى للرب، بوصفه كياناً حالاً ومتعالياً في الوقت نفسه، كياناً موحِّداً الإنسان، والطبيعة، والروح فقد وُضعت هنا بجانب صورة مرجعية قضائية متعالية كلياً منفصلة، بل ومعادية للإنسان والطبيعة. فرب العهد القديم الصارم المتجهم الذي لا يعرف معنى الرحمة أكثر الأحيان (يهوه) متجسد الآن في المسيح القاضي الذي يدين العاصي، كما يخلص الممتثل. والكنيسة نفسها -مفهومة هنا بوصفها مؤسسة هرمية أكثر منها أسرة مؤمنين صوفية- مضطلعة بالدور القضائي مع قدر ذي شأن من المرجعية الثقافية. أما المثل الأعلى المسيحي المبكر الحدسي للاندماج بالمسيح المنبعث وبالجماعة المسيحية، والاتحاد الفلسفي الصوفي المستلهم هلينياً مع **اللوغوس الإلهي**، فمتراجعان بوصفهما اثنين من أهداف الدين لمصلحة المفهوم الأكثر يهودية لطاعة مشيئة الرب الصارمة والحازمة، وطاعة قرارات المؤسسة الكنسية التراتبية، استطراداً. وهنا كثيراً ما جرى تصوير معاناة المسيح وموته سبباً إضافياً لإدانة الإنسان، بدلاً من تمخضهما عن إلغاء تلك الإدانة. ما لبث

الصلب بوجهه المرعب أن أصبح الصورة المهيمنة، بدلاً من القيامة أو الطرفين معاً. إن علاقة ابن مذنب بأب متجهم، كما في الجزء الأكبر من العهد القديم، باتت تظلل إلى حد كبير مشهد المصالحة السعيدة مع الجوهر الإلهي المعلن على الضفة الأخرى من المسيحية المبكرة.

ومع ذلك، فإن قطبي الرؤية المسيحية لم يكونا شديدي الافتراق كما قد تشي هذه التمايزات، والكنيسة لم تكتفِ بحمل معنى الطرفين، بل كانت ترى نفسها الحل المناسب لذلك الانشقاق. ولفهم الطرق التي اعتُمدت من أجل توحيد مثل هذه الرسائل المتفارقة ظاهرياً في إطار الدين نفسه، علينا أن نحاول التقاط العملية التي من خلالها تطورت الكنيسة المسيحية، على صعيد تصورها الذاتي من ناحية وعلى المستوى التاريخي من ناحية ثانية، وضغط جملة تلك الأحداث، والشخصيات، والحركات التي تولت إدارة ذلك التطور. حتى ذلك النوع من التمحيص يبقى، على أي حال، معتمداً على الانطلاق أولاً من إدراك، أقله ملاحظة، الإعلان المسيحي البدائي في شيء شبيه بصيغته العائدة إلى القرن الأول.

## المسيحية السعيدة

في العهد الجديد، خصوصاً في فقرات معينة من رسائل بولس وإنجيل يوحنا، من الواضح أن الصدع اللانهائي بين الإنساني والإلهي بدا بمعنى من المعاني مجسوراً. فالذنب والألم الناجمان عن ذلك الصدع (بسبب خطيئة آدم) قد جرى تجاوزهما والتغلب عليهما بانتصار المسيح («آدم الثاني»)، فبادر المسيحي المؤمن إلى الاشتراك المباشر في الوحدة الجديدة. وذلك الخيار بدا أخيراً كما لو كان متاحاً للإنسانية. أقدم المسيح على التضحية بنفسه لتمكين الإنسان الفاني من بلوغ الحياة الخالدة: ومع رحيل المسيح عن العالم سارعت روحه إلى النزول وباتت حالّة في الإنسانية.

جاء التصور المسيحي الجديد للرب مختلفاً عن الصورة اليهودية التقليدية. لم يقف الأمر عند كون يسوع المسيح (المخلص) الذي سبق لأنبياء اليهود أن بشروا به، الذي أكمل الرسالة الدينية اليهودية في التاريخ. لقد كان أيضاً، متحداً مع الرب؛

وعبر إقدامه على التضحية بنفسه كان يهوا العهد القديم المستقيم الداعي إلى الثواب والعقاب قد انقلب إلى آب العهد الجديد المحب. كذلك دأب أوائل المسيحيين على تأكيد مباشرة وحميمية جديدتين مع الرب، الذي جرى تحويله من القسوة البعيدة ليهوا إلى الإنسانية القريبة ليسوع المسيح، والذي بات الآن محرراً رحيماً أكثر منه قاضياً انتقامياً.

شكل مجيء المسيح، إذًا، قطيعة مع التراث اليهودي وإنجازاً له في الوقت نفسه. (ذلك هو سبب التمييز الواعي لأوائل المسيحيين بين العهدين «القديم» و«الجديد» مع إعلان الأخير لشعارات «الحياة الجديدة»، «الإنسان الجديد»، «الطبيعة الجديدة»، «الطريق الجديدة»، «السماء والأرض الجديدتين»). إن تصدي المسيح للموت، والمعاناة، والشر وانتصاره عليها قد وفرا إمكانية تحقيق مثل ذلك الانتصار وجَعْلَها متاحة لجميع البشر، ومكّناهم من إدراك شدائدهم في سياق ميلاد جديد أوسع. فالموت مع المسيح إن هو إلا قيام معه لمباشرة حياة الملكوت الجديدة. تم النظر إلى المسيح بوصفه نقطة جِدَّة أبدية، ميلاد بلا حدود لنور إلهي في العالم وفي الروح أو النفس. أما صلبه فجاء تجسيداً لآلام ولادة إنسانية جديدة وكون (كوزموس) جديد. ثمة عملية تحول كانت قد انطلقت في كل من الإنسان والطبيعة بفعل افتداء المسيح، وذلك عملية بدت حدثاً كونياً ذا تأثير في الكون كله. فبدلاً من استمطار اللعنة على إنسانية خاطئة في عالم ساقط، ثمة قدر أكبر من التشديد وتسليط الأضواء على نعم الرب اللامحدودة، وعلى حضور الروح، وعلى محبة **اللوغوس** للإنسان والعالم، وعلى التقديس، وعلى التأليه، وعلى البعث الكوني الشامل. استناداً إلى ما ورد في كتاباتهم يبدو أن عدداً كبيراً من أوائل المسيحيين قد عاشوا تأجيلاً مفاجئاً لحكم بالإعدام، قلباً لعملية إدانة مؤكدة، وهدية حياة جديدة غير متوقعة، لا حياة جديدة وحسب، في الحقيقة، بل حياة أبدية. وتحت راية هذا الوحي الإعجازي، انطلق هؤلاء ينشرون «النبأ السعيد» لخلاص البشرية.

لقد بولغ في النظر إلى افتداء المسيح على أنه إنجاز مطلق وإيجابي لتاريخ الإنسان ولمجمل المعاناة الإنسانية، إلى درجة أن خطيئة آدم الأصلية، ذلك الجذر الأنموذجي الأصلي لغربة الإنسان وفنائه، تم الاحتفال بها، ويا للمفارقة! بوصفها («يا للخطيئة

مباركة!» [**O felixculpa!**]) في طقوس عيد الفصح. جرى النظر هنا إلى السقوط -خطأ الإنسان الأول الذي جلب المعرفة السوداء للخير والشر، أخطاء الحرية على الأخلاق، تجربة الاغتراب والموت- لا بوصفه كارثة مأساوية بشعة خالصة، بل على أنه جزء عضوي مبكر، استعادي، من تطور الإنسان الوجودي ناجم عن افتقاره الطفولي إلى الوعي النافذ، عن هشاشته الساذجة إزاء الخداع. من منطلق إساءة استخدام حريته التي هي من نعم الرب، وتفضيل محبة الذات ورفعها فوق الرب، أقدم الإنسان على تخريب كمال الخلق وأخرج نفسه من دائرة الاتحاد مع السماء. ومع ذلك، فإن الإنسان لا يستطيع الآن أن يعيشَ البهجة اللانهائية المترتبة على غفران الرب ويعانق روحه الضائعة، إلا عبر وعي مؤلم الحدة بهذه الخطيئة. من خلال المسيح كان يجري ردم الهوة الأولى واستعادة كمال الخلق على مستوى جديد وأكثر شمولاً. ضعف الإنسان أصبح، إذًا، نقطة قوة الرب. فقط من إحساسه بالهزيمة والتناهي يستطيع الإنسان أن ينفتح بحرية على الرب. وفقط بسقوط الإنسان يستطيع مجد الرب وحبه غير القابلين للإدراك أن يتجليا تجلياً كاملاً عبر تصويب ما يستحيل تصويبه. حتى غضب الرب الظاهر يمكن أن يُفهم الآن بوصفه عنصراً ضرورياً من عناصر كرمه اللانهائي، كما يمكن النظر إلى المعاناة الإنسانية، بوصفها المقدمة الضرورية لسعادة غير محدودة[24].

بانتصار المسيح على الموت، برؤية الإنسان لاحتمال بعثه الأبدي، كف كل الشر والعذاب الزمنيين عن الانطواء على معنى نهائي سوى التمهيد للفداء. فالعنصر السلبي في الكون بات ميالاً إلى الاضطلاع بدور التمخض، وفقاً لمنطق نوع من السر الإلهي، عن حالة وجود أكثر إيجابية متاحة لجميع المسيحيين. كان بوسع المرء أن يضع ثقته المطلقة في كلي القدرة، نابذاً جميع أشكال القلق بشأن المستقبل للعيش ببساطة «زنابق الحقول». تماماً كما تنغلق البذرة المخبوءة من قلب ظلال الشتاء الباردة لتتفتح على نور الربيع وحياته، كذلك تعكف حتى أحلك ساعات حكمة الرب على صياغة مشروعاتها الرفيعة. فالمسرحية الدرامية كلها من الخلق إلى المجيء الثاني يمكن النظر إليها بوصفها النتاج الأسمى لخطة السماء، عملية تكشف **اللوغوس**. إن المسيح هو بداية الخلق ونهايته، «الألف والياء»، حكمته الأصلية وتتويجه النهائي. ما

كان خافيـاً بات مكشوفاً. هذا كله احتفل به أوائل المسيحيين بنوع من المجاز الصوفي: مـع تجسد المسيح كان **اللوغوس** قد عاد إلى الدخول في العالم مبدعاً أغنية سماوية، ضابطـاً نشازات الكـون في تناغم كامل، عاكساً صدى فرح الزواج الكوني بين السماء والأرض، بين الرب والإنسانية.

هـذا الإعلان المسيحـي البدائي للفداء جـاء صوفياً، وكونيـاً، وتاريخياً في الوقت نفسه. من ناحية ثمة تجربة التحول الداخلي العميق: فعيش انبلاج فجر ملكوت الرب كان يعنـي الوقـوع من الداخـل في أسر السماء، ممتلئـاً بنور الحـب الداخلي. بنعمة المسيح ماتت الذات القديمة، المنفصلة والزائفة لتفسح في المجال لميلاد ذات جديدة، الـذات الحقيقية المتوافقة مع الـرب. فالمسيح كان هو الذات الحقيقية، النواة الأعمق للشخصيـة الإنسانيـة. ميلاده في النفس الإنسانية لم يكـن وصولاً خارجياً بمقدار ما كان انبثاقـاً داخليـاً، استيقاظـاً على ما هـو حقيقي، اقتحاماً جذريـاً غير متوقع من جانـب القداسـة لقلب التجربة الإنسانيـة. ومع ذلك كان ثمـة في المقابل، برفقة هذا التحـول الداخلي، العالم كله دائباً على التحول وخاضعـاً لعملية الاستعادة إلى مجده السماوي، ليس فقط كما لو بفعل إنارة ذاتية، بل بطريقة وجودية أساسية معينة ذات شأن على الصعيدين التاريخي والجماعي.

هنـا بالذات تأكدت نزعة تفاؤلية غير مسبوقة. بصفتيه المادية والتاريخية انطوت قيامـة المسيح على وعـد أن من شأن كل شيء -كل تاريخ الأفـراد والإنسانية على حدٍّ سواء، كل الكفاح، كل الأخطاء والخطايا والنواقص، كل الصفات المادية، مجمل دراما الأرض وواقعها- أن يتعرض بشـكلٍ ما للاحتجاج والتصويـب في عملية إعادة توحد مظفـرة مع الإله الأكبر اللانهائي. من شأن كل ما هو قاسٍ وعبثي أن يصبح، عندئذ، ذا معنى في التجلي الكامل للمسيح، المعنى المخبوء للخلق. لا شيء سيتعرض للإهمال. ليس العالم سجناً شريراً، ووهماً يتعذر الاستغناء عنه، بل هو حامل مجد الرب. ليس التاريـخ دورة لا نهائيـة لمراحل متقهقرة، بل هو صيغة أو معادلـة تأليه الإنسانية. من خلال قدرة الرب الكلية، أمكن على نحوٍ إعجازي قلب، حتى القَدر المتجهم إلى عناية إلهيـة سمحاء. من شـأن العذاب واليأس الإنسانيين أن يصـلا، لا إلى محطة راحة فقـط، بل إلى عـلاج سماوي. بوابات الفردوس الموصـدة بإحكام عند السقوط تمت

إعادة فتحها من قبل المسيح. ومن شأن لا محدودية رحمة الرب وقوته أن تنجح حتماً في اجتياح الكون وصولاً إلى تتويجه.

يبدو أن كثيرين من أوائل المسيحيين عاشوا في حالة اندهاش مستمرة إزاء الافتداء التاريخي الإعجازي الذي كان قد حصل في اعتقادهم. فتوحيد الكون بات مشرقاً، وقد تمَّ إنجاز الانتصار على نهائية جملة الثنائيات القديمة -ثنائيات الإنسان والله، والطبيعة والروح، والزمن والأبد، والحياة والموت، والذات والآخر، وإسرائيل وباقي البشرية. وفيما كانوا ينتظرون بتوقٍ مجيء المسيح الثاني، حضوره، حين سيعود من السماوات بمجد كامل أمام العالم كله، بقي وعيهم متركزاً على الحقيقة المحرِّرة التي كان المسيح قد أطلقها في عملية الافتداء والإنقاذ- عملية مظفرة يمكنهم أن يسهموا فيها إسهاماً مباشراً. على هذا الأساس قام موقف الأمل المسيحي الطاغي. وعبر فعل الأمل المتواصل للمسيحي المؤمن بقوة الرب وخطته الرحيمتين بالنسبة إلى الإنسانية، بات التعالي على محاولات الحاضر وأخطائه ممكناً. بوسع الإنسانية الآن أن تتطلع إلى الأمام، بثقة متواضعة، نحو إنجاز مستقبلي مجيد، كان موقفها المفعم بالأمل مسهماً بطريقةٍ ما في تحقيقه.

أما لغة الكلام عن المسيح القادم التي استخدمها **بولس**، **ويوحنا**، ولاهوتيون مسيحيون أوائل مثل **إيرينايوس**، فبدت موحية، ليس فقط بأن عودة المسيح كانت ستتم بوصفها حدثاً خارجياً، هبوطاً من السماء في موعد غير محدد في المستقبل، بل وبأن من شأنها أيضاً أن تأخذ شكل ميلاد تدريجي من داخل التطور الطبيعي والتاريخي لجميع الكائنات البشرية، التي كانت تتعرض لعملية الاستكمال في المسيح وعبره. ففي تجسده المتواصل والتدريجي في الإنسانية وفي العالم، كان من شأن المسيح أن يوصل الخلق إلى مرحلته المثمرة. قد تكون البذرة مخبوءة الآن في باطن الأرض، غير أنها باتت متحركة، فاعلة نامية ببطء، متقدمة نحو الاكتمال في تكشف مجيد للغز السماء. كتب **بولس** في رسالته إلى أهل رومية يقول: (الخلق كله يئن في مخاض) ولادة هذا الكائن السماوي، تماماً كما كان المسيحيون جميعاً ملقحين بالمسيح من الداخل، ملقحين بنفَس جديدة ستولد لحياة جديدة وأكثر صدقاً في إطار الوعي

الكامل للرب. تاريخ الإنسان مدرسة كبرى لتعلم أسرار القداسة، وللاطلاع على ألغاز السماء، طريق موصلة لكيان الإنسان إلى الرب.

من هذا المنظور كان الإنسان مسهماً نبيلاً في تكشف الرب الإبداعي. وفي اغترابه عن الرب بقي الإنسان، أتعس المخلوقات، قادراً على الاضطلاع بدور مركزي في إصلاح الحالة الخربة للخلق واستعادة صورته الإلهية. كان اللوغوس (الكلام - المنطق) قد هبط على الإنسان؛ كي يتمكن الأخير، عبر اقتسامه آلام المسيح ومبادرته الآن إلى استيعاب اللوغوس بنفسه، من الصعود إلى الرب.

وفي ضوء الوحي المسيحي لم تكن جهود البشر عبثاً. تعين على الإنسان أن يتعذب، وأن يحمل صليب المسيح؛ ليكون قادراً على حمل الرب. لم يكن يسوع المسيح سوى آدم الجديد الذي بادر إلى إطلاق إنسانية جديدة، قابلة للإنجاز في المستقبل مطوِّراً طاقات جديدة قائمة على الوعي والتحرر الروحيين، غير أن الإلهي كان من البداية كامناً وفاعلاً على نحوٍ مجيد في الإنسان وفي العالم الحاضر.

## المزيد من التناقضات والتراث الأوغسطيني

### المادة والروح

كان النزاع الداخلي في المسيحية بين الافتداء والحكم، وبين توحد الرب مع العالم مع تمييز عالي الشحنة الثنائية، استثنائي البروز في موقفيه من العالم والجسد الماديين، وهو تناقض أساسي لم يسبق للمسيحية أن حلته كلياً. فاليهودية والمسيحية دأبتا، بقدرٍ أكبر من الصراحة، مقارنة بمدارس دينية أخرى، على تأكيد ما يتصف به خلق الإرادة الحرة للرب من حقيقة، وعظمة، وجمالية، واستقامة كاملة: بعيداً عن كونه وهماً، زيفاً، واحداً من أخطاء السماء؛ بعيداً عن أن يكون تقليداً ناقصاً أو فيضاً ضرورياً. فالرب خلق العالم، وكان حسناً. يضاف: خُلق الإنسان، جسداً وروحاً، على صورة الرب، غير أن كلاً من الإنسان والطبيعة ما لبثا، مع اقتراف الأول للخطيئة وسقوطه، أن فقدا موروثهما السماوي المقدس، فبدأت مسيرة العذاب الدرامية اليهودية -المسيحية الطويلة الزاخرة بتقلبات حال الإنسان في علاقته مع الرب، في

زحمة عالم مغترب وفارغ روحياً. وبمقدار ما كانت الرؤية اليهودية- المسيحية للخلق الأصلي الشفاف مجيدة، كانت نظرتها إلى سقوط العالم أكثر مأساوية.

ولكن الوحي المسيحي أكد أن المسيح، قد صار إنساناً، لحماً ودماً، وكان بعد صلبه قد صعد من جديد في عملية اعتقد الحواريون أنها كانت عملية تحول وتجديد روحية لجسده المادي. وعلى هاتين المعجزتين المركزيتين في العقيدة المسيحية -التجسد والبعث- تأسس الإيمان، لا بخلود النفس وحسب، بل وحتى بخلاص الجسد وبعثه، وصولاً إلى خلاص الطبيعة بالذات وبعثها. لا نفس الإنسان فقط، بل وجسده مع أنشطتها تتغير، تكتسب الصفة الروحية، تستعيد قداستها من جديد. حتى الاتحاد الزوجي هنا كان يُنظر إليه، بوصفه انعكاساً لارتباط المسيح الحميم بالإنسانية، منطوياً، على أهمية مقدسة. وفي يسوع كان **اللوغوس** الأنموذجي الأصلي قد اندمج بصورته المشتقة (الإنسان) مسترجعاً قداسة الأخير الكاملة. أما الانتصار الخلاصي فتمثل في إنسان جديد بكليته، لا مجرد تعالٍ روحي لماديته. ثمة في تعليم «جُعل اللوغوس لحماً» وفي الإيمان بميلاد الإنسان كله من جديد، بُعْدٌ مادي صريح مميز للمسيحية عن تصورات أخرى، أكثر حصرية في صوفيتها.

وهذا الفهم الإنقاذي المسيحي أعاد تأكيد النظرة اليهودية إلى الإنسان، نظرة موازية للفكرة الأفلاطونية الجديدة المتأخرة القائلة: إن الإنسان إن هو إلا كون مصغر عاكس للسماء، وأضفى عليها معنى جديداً، ولكن مع التشديد الأكبر دون شك لليهودية على الإنسان -جسداً وروحاً- بوصفه وحدة متماسكة ذات طاقة حيوية. إن الجسد هو وعاء الروح، وهيكلها، وتعبيرها المجسد. يضاف أن كهانة يسوع كانت منطوية مركزياً على فعل شفاء الجسد والروح مجتمعين. ففي الكنيسة الأولى ثمة إشارات متكررة إلى «المسيح الطبيب» وكثيراً ما يرد ذكر الحواريين والرسل، بوصفهم محترفي طبابة وعلاج كاريزميين. إن العقيدة المسيحية البدائية نظرت إلى طبيعة الخلاص الروحي من زوايا سايكوسوماتية (نفسية - جسدية) صريحة. فصورة **بولس** المهيمنة لبعث البشرية كانت صورة الجسد الواحد للمسيح، البشرية كلها تؤلف أعضاءه، وصولاً إلى كمال المسيح الذي كان رأسها

وتاجهـا. ومـع ذلك، فـإن الأمر لم يقـف عند استعـادة الإنسـان إلى القداسة، بل تجاوزهـا إلى الطبيعة التي كانت قد تعرضت، جـراء سقوط الإنسان، للتمزيق إلى أشلاء، وباتت تحلم بخلاصها. ففي رسالته الموجهة إلى الرومان (إلى أهل رومية) قـال بولـس: «فإن انتظار الخليقـة يتوقع تجلي المجد في أبنـاء الله؛ لأن الخليقة قد أُخضعت للباطل، لا عن إرادة، ولكن لأجل الذي أخضعها على رجاء» (رسالة القديس بولـس إلى أهل رومية: 19/8 – 20). إن أوائل آبـاء الكنيسة كانوا مؤمنين بأن المسيح الذي كان سيستعيد العلاقة المقطوعة بين الإنسان والرب، سيقوم في الوقت نفسه بسد الهوة الحاصلة بين الإنسان والطبيعة التي طالما خضعت لمساءلة الإنسان الأنانية منذ السقوط وانزلاق الإنسان إلى درك سوء استعمال الحرية.

لم يتـم النظـر هنـا إلى تجسد المسيـح في العـالم وافتدائه لـه، بوصفهما حدثين روحيين حصراً، بل على أنهما، بالأحرى، تطور غير مسبوق وبلا نظير في سياق المادية الزمانيـة والتاريخ العالمي، وتجسيد لإضفـاء الكمال الروحي على الطبيعة –لا بوصفه نقيضـاً للطبيعة، بل تحققاً لهـا– **فاللوغوس**، حكمة السمـاء، كان حاضراً في الخلق مـن بدايته، أمـا الآن فكان المسيح قد أمـاط اللثام عن قداسة العـالم المضمرة. كان الخلـق أساس الخلاص تماماً، كما كانت الولادة الشرط المسبق للبعث. وبهذه النظرة عُدَّت الطبيعة مأثرة الرب النبيلة والحوزة الحالية لتجليه الذاتي، مما جعلها جديرة بالاحترام والفهم.

ولكـن نظـرة مناقضة كانت أيضـاً سمة مميـزة بالقدر نفسه للتفكـير المسيحي، نظـرة هيمنت خصوصـاً في المراحل المتأخرة من المسيحية الغربيـة، حيث باتت يُنظر إلى الطبيعـة بوصفهـا الناحيـة التي لا بـد من التغلـب عليها في سبيل بلـوغ الطهارة الروحيـة. فالطبيعة، كلها، فاسدة ومحددة. وحـده الإنسان، رأس الخلق وقمته، قادر علـى الخلاص، ووحدها الروح فيه قابلة أساسـاً للإنقاذ. وبموجب هذا الفهم، تبقى روح الإنسـان في صـراع مباشر مـع الغرائز الوضيعـة لطبيعتـه البيولوجية، وعرضة لخطـر الوقوع في شرك ملـذات الجسد والعالم المادي. فالجسد المـادي هنا كثيراً ما يوصم بأنه ملاذ الشيطان ومنبع الخطيئة. والإيمان اليهودي – المسيحي الأول بخلاص

الإنسان كله مع العالم الطبيعي ما لبث أن تحول من حيث التركيز، خصوصاً تحت تأثير لاهوتيي المسيحية الأفلاطونية الجديدة، إلى إيمان بنوع من الإنقاذ الروحي الخالص الذي لا يفضي إلا إلى توحيد ملكات الإنسان الأسمى فقط - الفطنة الروحية، الجوهر السماوي للروح الإنسانية -مع الرب. وفي حين أن العنصر الأفلاطوني في المسيحية تغلب على ثنائية السماوي- الإنساني عبر النظر إلى الإنسان بوصفه مشاركاً مباشراً في الأنموذج السماوي الأصلي، فإنه دأب في الوقت نفسه على تشجيع ثنائية مغايرة بين الجسد والروح. إن الفطنة الروحية، النوس، هي البؤرة المركزية بالنسبة إلى الهوية السماوية - الإنسانية الأفلاطونية؛ أما الجسد المادي فلا علاقة له بهذه الهوية، بل هو تعطيل لها. وفي صيغها الأكثر تطرفاً دأبت الأفلاطونية على ترويج شعار «الجسد سجن للروح» في الثقافة المسيحية.

مع العالم المادي، كما مع الجسد المادي، يأتي مبدأ أفلاطون القائم على القول بتفوق الواقع المتعالي على العالم المادي الطارئ متمخضاً في المسيحية عن تعزيز ثنائية دأبت بدورها على تأييد نوع من الزهد أو التقشف الأخلاقي. ومثله مثل سقراط أفلاطون بات المسيحي المؤمن يتصور نفسه مواطناً في عالم الروح، مع بقاء علاقته بالدنيا المادية العابرة علاقة غريب وحاج. سبق للإنسان أن كان متمتعاً بنوع من المعرفة السماوية السعيدة، ولكنه ما لبث أن سقط في ظلام الجهل، ووحده الأمل في استعادة ذلك النور الروحي المفقود يحرّك النفس المسيحية السجينة في هذا الجسد، وهذا العالم. فقط حين يستيقظ الإنسان من حياته الحالية يمكنه بلوغ السعادة الحقيقية. والموت، بوصفه تحرراً للروح، أثمن من الوجود المبتذل. في أفضل الأحوال، ليس العالم الطبيعي الملموس إلا انعكاساً ناقصاً للملكة الروحية الأسمى القادمة وتمهيداً لها. غير أن الاحتمال الأقوى هو أن العالم المبتذل، بإغراءاته الخادعة، وبملذاته المثيرة وبقدرته على الحفز المهين للشهوات، من شأنه أن يضلل النفس ويحرمها من نعمتها السماوية. لذا فإن سائر الجهود الفكرية والأخلاقية الإنسانية يجب أن تتوجه نحو الروح وما بعد الحياة، بعيداً عن المادة وهذه الحياة. وفي هذا كله ظلت الأفلاطونية توفر تسويغاً فلسفياً قوياً لثنائية الروح والمادة المحتملة في المسيحية.

ومـع ذلك، فـإن هذا التطور اللاهوتـي اللاحق كانت له سوابق كثـيرة: كانت ثمة الرواقيـة، والفيثاغورسيـة الجديـدة، والمانوية، وطوائـف دينية أخرى مـن الإسنيَّة، متوافـرة جميعاً على نزعات دينية قائمة على الثنائيـة والزهد، تركت بصماتها على النظـرة المسيحية. واليهودية نفسها، بإصرارها المميـز على محاربة التلويث الدنيوي والجسـدي لما هـو مقدس وسماوي، توفر الدعم لمثل هـذه التوجهات منذ بدايات هذا الديـن الجديد. غـير أن تيارات غنوسطية (عرفانية) ثنائيـة معينة، ناشئة ربما عن تأثـر اليهوديـة الصوفيـة بالثنائيـة الزرادشتية، كانت هـي الأكثر تطرفـاً على هذا الصعيـد خـلال قـرون المسيحيـة الأولى، مؤكدة نوعاً مـن الفصل المطلـق بين عالم مـادي شرير من ناحية وملكوت روحي خير من الناحية المقابلة. واللاهوت الغنوسطي (العرفاني) التوفيقي نجح في إحداث تحول جذري في التصور المسيحي الأرثوذكسي، عـبر الحفـاظ على القول: إن خالق العالم المادي، يهوه العهـد القديم، كان إلهاً ثانوياً ناقصـاً واستبدادياً، جاء المسيـح الروحي والأب الرحيم لوحـي العهد الجديد (هذا الوحي الـذي دأب الغنوسطيون على تدعيمه بنصوص أخرى وتحريره لاستبعاد بقايا العقيدة اليهودية التي رأوها زائفة منه) من أجل الإطاحة به. إن روح الإنسان مسجون في جسـد غريـب داخل عالم مـادي غريب لا يستطيـع التعالي عليه سـوى العرفانيين باطنيـاً، تلك القلـة المختارة من الغنوسطيين. ومثل هـذه الرؤية ما فتئت أن ضاعفت توجهـات ذات علاقـة في سفر يوحنا، مؤكـدة جملة الانقسامات بـين النور والظلام، بـين مملكـة المسيح والعـالم الخاضـع للشيطـان، بين النخبـة الروحيـة والساقطين الدنيويـين، كما بين يهوه والمسيح، بين العهديـن القديم والجديد. وعلى الرغم من أن لاهوتيـي المسيحية الأرثوذكسية الأقدم، من أمثـال آيرينايوس، جادلوا بقوة مدافعين عـن استمرارية العهدين القـديم والجديد، عن وحدة خطة السمـاء من التكوين إلى المسيـح، فإن صـدى قوياً من لحن الثنائيـة الغنوسطية ترك بصماتـه على اللاهوت والورع المسيحيين اللاحقين.

فالمسيحيـة البدائيـة ذاتها كانت، مثل أمهـا اليهودية، ميالة بغموض إلى نوع من ثنائيـة المـادة – الروح مع نظـرة سلبية إلى الطبيعة وهذا العـالم. وإبليس بنظر العهد

الجديد هو أمير هذا العالم؛ بقيت الثقة المسيحية بعالم تحكمه السماء، إذًا، متجاورة مع الخوف المسيحي من عالم خاضع لحكم الشيطان. يضاف إلى ذلك، دأب جل أوائل المسيحيين؛ رغبة منهم في الابتعاد عن الثقافة الوثنية المعاصرة المفرطة في جنسيتها، على تأكيد الحاجة إلى نوع من الطهر الروحي الذي لا يتسع لغرائز الطبيعة، ولا سيما الجنسية. كانت العزوبية هي الحالة المثالية، مع إبقاء الزواج إجازة ضرورية لحصر جشع الإنسان في حدود معينة. أما الصيغ الاجتماعية والخيرة للمحبة المسيحية فكانت تلقى التشجيع بوصفها بدائل - كان الرهان على آغابه بدلاً من إيروس. وما كان ينطوي على أهمية استثنائية على هذا الصعيد تمثل في توقع عودة المسيح الوشيكة، ذلك التوقع الذي ظل طاغياً على مشاعر الكنيسة المبكرة والذي دأب على تجريد الاعتبارات الفاعلة والمادية من الأهمية. فقدوم ملكوت السماء، وهو حدث كانت أكثرية أوائل المسيحيين تتوقع وقوعه خلال حياتها هي، كان من شأنه استئصال جميع الأشكال المادية والاجتماعية للنظام القديم. وعلى نحو أعم، تمخضت الرغبة في التغلب على المبالغات المادية المتصورة للثقافة الوثنية، جنباً إلى جنب مع تصدي المسيحية المتكررة للملاحقات المعتمدة من قبل الدولة، عن إلزام أوائل المسيحيين بالعزوف عن قيم العالم الحالي، مقابل الحصول على قيم العالم الآخر. فالانسحاب من هذا العالم والتعالي عليه، سواء على طريقة نساك الصحراء أو عبر الشهادة، على نحو أكثر تطرفاً، كانا عاملي جذب قويين بالنسبة إلى أي مسيحي مفعم بالحماس. كثيراً ما كانت التوقعات الرؤيوية - الكارثية تنشأ من التقويمات السلبية جداً لهذا العالم وتولدها.

كانت الحاجة إلى الحفاظ على القداسة والبراءة انتظاراً لمجيء المسيح الوشيك الضرورة القصوى بالنسبة إلى المسيحي الأول. وطبيعة تلك القداسة والطهارة الأخلاقية تحددت في قيام بولس بالمعارضة الجذرية بين «الجسد» و«الروح» حيث الأول شر والثانية خير. صحيح أن بولس ميز بين «الجسد» (**ساركس Sarx**) بوصفه طبيعة لم يتم إنقاذها، و«الجسم» (**سوما Soma**) بوصفه تعبيراً عن مجمل الإنسان كله -جزءاً من ثنائية الجسد- الروح الإغريقية بقدرٍ أقل، ومن الوحدة التوراتية القابلة للوقوع في الخطيئة، مع بقائها منفتحة على الخلاص والإنقاذ بقدرٍ أكبر. لقد اقترح

تقويمـاً إيجابياً لـ «الجسـم» في صور مثل جسم المسيح، جسـم أعضاء الكنيسة، بعث الجسـم، الجسم بوصفه هيكل الروح القدس. وغالباً ما كان يستخدم تعبير «الجسد» للدلالـة على ما هو مادي بحد ذاتـه، لا على الضعف الفاني للإنسـان، وتحديداً على ترفع ذاتي ضيق يجر وراءه انقلاباً أخلاقياً على صعيد الشخصية الإنسانية القويمة، إخضاعـاً للـروح والجسم الإنسانيين لقـوى سلبية دنيا على حسـاب انفتاح ودي على واقـع الرب الروحي الأعظم. لم تكن الخطيئة جنسية مجردة -بالرغم من أن الحياة الخاطئة كانت جنسية في كوابيسها- بمقدار ما كانت عملية الرفع الضال لما كان بحق تابعاً للرب، وهي عملية جيدة بحد ذاتها بمعايير سليمة، إلى ما فوق الرب.

ولكن تمييز بولس بين الجسد والجسم بقي مع ذلك غامضاً، في كل من تصريحاته العقديَّة وأخلاقه العملية. وقد كان اختياره لـ «الجسد» تعبيراً جامعاً لمثل هذا التحقير المعنوي والميتافيزيقي النافذ، اختياراً مؤثراً. فنزوع الكثيرين من المسيحيين اللاحقين نزوعـاً أنموذجياً إلى رؤية ما هو مادي، بيولوجـي، وغريزي ميالاً بالفطرة إلى ما هو شيطاني ومسؤولاً عن سقوط الإنسان وفساده المتواصل، لم يكن بعيداً عن دعم بولس المفترض. وفي استقطاب الجسد - الروح لدى بولس، وقد ضاعفته نزعات مشابهة في أجـزاء أخرى من العهد الجديد، كانت ثمة بـذور ثنائية معادية للمادية في المسيحية، جاءت التأثيرات الأفلاطونية، والغنوسطية، والمانوية لمضاعفتها وتعظيمها لاحقاً.

### أوغسطين

قام أوغسطين بإماطة اللثام عما كان مضمراً في **بولس**. وهنا بالذات يتعين علينا أن نضاعف من تركيزنا على ذلك الفرد الذي كان من شأن تأثيره في المسيحية الغربية أن يكون فريد الشيوع والدوام. فبالنسبة إلى **أوغسطين** تضافرت جميع هذه العوامل - اليهوديـة، ولاهـوت بولـس، وصوفية **يوحنـا**، والتنسـك المسيحي المبكـر، والثنائية الغنوسطية، والأفلاطونية الجديـدة، والحالة النقدية للحضارة الكلاسيكية المتأخرة - مـع خصوصيات شخصيته وسيرة حياته لتحديـد موقف من الطبيعة وهذا العالم، مـن تاريـخ الإنسان، ومن خلاصـ الإنسان الـذي كان من شأنـه أن يقولب شخصية المسيحية الغربية في القرون الوسطى.

كان أوغسطين، وهو ابن أب وثني وأم مسيحية راسخة الإيمان، متمتعاً بنعمة شخصية زادت حدتُها من شحن استقطابه البيوغرافي. وبرغم كونه ذا طبيعة شديدة الحساسية، متابعاً حياة شباب غارقين في بحر ملذات قرطاجة الوثنية، متولياً أبوة طفل غير شرعي لعشيقته، مواصلاً وظيفة أستاذ الخطابة والبلاغة الدنيوية، ما لبث، تدريجياً، أن انجذب إلى ما هو فائق الحساسية والروحانية، جراء تفضيلاته الفلسفية وإلهاماته الدينية، كما بسبب هواجس الأم، خصوصاً. فعبر جملة من التجارب النفسية العاصفة، ابتعد أوغسطين عن حياته الأولى، ذات التوجهات العلمانية، ماراً بسلسلة مراحل منطوية على معنى ذي شأن بالنسبة إلى فهمه الديني اللاحق: تبنى أولاً حياة الفلسفة العليا بعد الاطلاع على **هورتنسيوس** (مناشدة Hortensius) شيشرون، ثم ما لبث أن انخرط مطولاً في الطائفة المانوية ذات النزعة الثنائية القوية شبه الغنوسطية؛ أتبع ذلك بالانجذاب المتزايد إلى الأفلاطونية الجديدة الفلسفية؛ واصلاً أخيراً، بعد لقاء مطران ميلانو المسيحي آمبروز، إلى وضع حد لبحثه عبر الاحتضان الكامل للدين المسيحي والكنيسة الكاثوليكية. وكل عنصر من هذا المسلسل ترك بصمته على رؤيته الناضجة التي أثرت بدورها في التفكير المسيحي اللاحق في الغرب من خلال كتاباته المتميزة بقدرة خارقة على الإقناع.

كان وعي أوغسطين الذاتي، بوصفه عنصر أخلاق طوعياً ومسؤولاً بالغ الحدة، مثله مثل إدراكه لمدى أهمية الأعباء التي ترتبها الحرية الإنسانية – أعباء الخطأ والذنب، الظلام والمعاناة، الانقطاع عن الرب. وبأحد المعاني، كان أوغسطين الأحدث بين معشر القدماء: كان يمتلك وعياً ذاتياً وجودياً بقدرته فائقة التطور على الاستبطان والمجابهة الذاتية، اهتمامه بالذاكرة ووعي الزمن، فطنته السايكولوجية، شكه وإحساسه بالندم، شعوره بالاغتراب الفردي للنفس الإنسانية في غياب الرب، حدة صراعه الداخلي، ارتيابه وتحذلقه الفكريين. إن أوغسطين هو أول من كتب معبراً عن القدرة على الشك بكل شيء، باستثناء واقع تجربة النفس أو الروح الخاصة في مجالات الشك، والمعرفة، والإرادة، والوجود – مؤكداً بذلك الوجود المحقق للأنا الإنسانية في النفس أو الروح. وقد أكد أيضاً التبعية المطلقة لتلك الأنا للرب الذي لولاه

لم تكن لتستطيع الوجود، بله امتلاكها القدرة على تحصيل المعرفة وتحقيق الذات. **فأوغسطين** كان أيضاً الأكثر انتماء إلى العصر الوسيط بين القدماء. إن تدينه الكاثوليكي، وتوجهاته التوحيدية، وتركيزه على العالم الآخر، وثنائيته الكونية، كانت جميعاً تبشر سلفاً بالعصر القادم - مثلها مثل إحساسه الحاد بغير المرئي، بإرادة الرب، وبالكنيسة الأم، وبالمعجزات، والنعم، والعناية الإلهية، وبالخطيئة، والشر، والشيطاني. كان **أوغسطين** إنساناً مشحوناً بالتناقض والغلو، ومن شأن تركته أن تحمل الطابع نفسه.

من المؤكد أن نوعية اهتداء **أوغسطين** وقوته -تجربة الغرق في النعم المتدفقة عليه من الرب التي نجحت في إبعاده عن العمى الفاسد والأناني لذاته الطبيعية- شكلتا العنصر المتوج لرؤيته اللاهوتية، غارستَيْن في أعماقه قناعة بتفوق إرادة الرب وخيره وبفقر إرادته الحبيسة. فالقوة المضيئة لتدخل المسيح الإيجابي في حياته أبقت الشخص الإنساني في ظل نسبي. ولكن الأمر الذي كان من شأنه أن يكون ذا تأثير استثنائي في فهمه الديني تمثل في الدور المحوري الذي أداه الجنس في بحث أوغسطين الديني. فعلى الرغم من تنبهه إلى أن نظام الطبيعة سماوي أساساً (وأكثر اندفاعاً في الغالب في إطراء جمال الخلق وسخائه من أي أفلاطوني)، بقي **أوغسطين** حريصاً على التطرف، في حياته الخاصة، في تأكيد الإنكار الزاهد لغرائزه الجنسية شرطاً مسبقاً للاستنارة الروحية الكاملة - وجهة نظر يدعمها تصديه لكل من الأفلاطونية الجديدة والمانوية، مع أنها عاكسة لجذور أعمق في شخصيته وتجربته الخاصتين.

محبة الرب كانت الأطروحة والغاية الأساسيتين لتدين **أوغسطين**، ومثل هذه المحبة ما كانت لتزدهر ما لم يتم قهر حب الذات وحب الجسد بنجاح. فالانصياع للجسد كان في نظره، أصل سقوط الإنسان؛ قيام آدم بتناول ثمرة شجرة معرفة الخير والشر، ذلك الخطأ الذي شاركت فيه البشرية كلها جرى ربطه، على نحوٍ مباشر، بالشهوة الجنسية (وبالفعل، فإن «المعرفة» التوراتية كانت على الدوام ذات أصداء جنسية). وفي نظر أوغسطين، فإن الطابع الشرير للشهوة الجسدية كان متجلياً في الخجل المصاحب للتعبير عنها، على نحوٍ غير خاضع لتحكم الإرادة العقلانية،

والمصاحب أيضاً لمجرد عري الأعضاء الجنسية. ما كان من شأن التكاثر والإنجاب في الفردوس قبل السقوط أن ينطوي على مثل هذا القدر من الطيش والعار الحيوانيين. أما الزواج فيستطيع الآن، أقله، استخلاص بعض الخير من الشر الموروث؛ لأنه جالب للنسل، وللالتزام الدائم، ولنوع من حصر الجنس بأغراض التكاثر والتناسل. غير أن الخطيئة الأولى مست جميع الخارجين من أرحام الأجساد، مما أدى إلى إخضاع البشرية كلها للعنة آلام الولادة، للمعاناة والذنوب في الحياة، ولشر الموت الأخير. فقط بشفاعة المسيح وببعث الجسد كان من شأن جميع آثار تلك الخطيئة أن تزال فيتم تحرير روح الإنسان من لعنة طبيعته الساقطة.

صحيح أن **أوغسطين** كان يرى أن جذر الشر لم يكن كامناً في المادة، مثلما كان الأفلاطونيون الجدد يرون؛ لأن المادة كانت من صنع الرب، وهي خير، إذًا. لعل الشر كان، بالأحرى، نتاج سوء استخدام الإنسان لإرادته الحرة. فالشر كان كامناً في فعل التحول نفسه –في الابتعاد عن الرب– لا في الشيء الذي تم التوجه نحوه. ومع ذلك، فإن في قيام **أوغسطين** بربط ذلك الاستخدام السيئ الخاطئ للحرية بالشبق والشهوة الجنسية، وبالفساد الطاغي للطبيعة بعد ذلك، ظلت بذرة الثنائية الأفلاطونية الجديدة والمانوية الأكثر تطرفاً نابضة بالحياة.

تلك هي الركيزة التي استند إليها مغزى لاهوت أوغسطين الأخلاقي. من المؤكد أن الخلق – الإنسان كما الطبيعة – نتاج استثنائي الروعة لخصب الرب الخيّر، غير أن ذلك الخلق ما لبث، جراء خطيئة الإنسان الأولى، أن انحرف انحرافاً جذرياً إلى درجة أن لا شيء سوى الحياة السماوية الثانية قادر على استعادة تماسكه ومجده الأصليين. لقد تضاعفت سرعة سقوط الإنسان بسبب تمرده الطوعي على التراتبية السماوية السليمة، تمرده المستند إلى تأكيد قيم الجسد على حساب قيم الروح. بات الإنسان الآن عبداً لأهواء النظام السفلي. لم يعد الإنسان حراً في تقرير مصير حياته من منطلق إرادته العقلانية ببساطة، ليس فقط لوجود ظروف غير خاضعة لتحكمه، بل لأنه مقيد على نحوٍ لاشعوري بالجهل والاشتراط العاطفي. إن أفكاره وأفعاله الخاطئة الأولية كانت قد أصبحت عادات متجذرة، ثم صارت آخر المطاف

أصفـاداً غير قابلة للتفكيك، ساجنة إياه في حالـة غربة ملعونة عن الرب. ما من قوة سـوى رحمة السماء قادرة علـى كسر دوامة الخطيئة الشريرة. إن الإنسان أسير غلوه وكبريائـه، شديد الرغبة في فرض إرادته على الآخرين، إلى درجة يبقى معها عاجزاً عن تغيير نفسه بطاقاته الخاصة. وفي حالته الساقطة الحالية لا يمكن لحرية الإنسان الإيجابيـة أن تقوم إلا على أساس التسليـم بنعمة الرب وفضله. فقط الرب قادر على تحريـر الإنسان؛ لأن كل فعل يقوم به الإنسان وحـده يبقى عاجزاً عن تحريكه باتجاه الخلاص. والرب عارف سلفاً الوقت كله، هوية النخبـة وهوية الملعونين، استناداً إلى معرفته الكلية المسبقة لأشكال تجاوب الفريقين المختلفة مع رحمته. وعلى الرغم من أن من شأن العقيدة المسيحية الرسمية ألا تتبنى دائماً صياغات أوغسطين الأكثر تطرفاً للقدر المكتوب سلفاً أو إنكاره شبه الكامل لأي دور بشري فاعل في عملية الخلاص، فإن النظرة المسيحية اللاحقة إلى فساد الإنسان وسجنه الأخلاقيين كانت نظرة متطابقة إلى حدٍّ كبير مع نظرة **أوغسطين**.

وهكـذا، فإن الرجل الذي أعلن، بمثل هذه القوة، محبة الرب وحضوره التحريري في حياتـه الخاصـة أقر أيضاً، بفاعليـة لم تتوقف قط عن اخـتراق التراث المسيحي الغربـي، بالتبعية والعجز الداخليين للروح الإنسانية المفسدة بالخطيئة الأصلية. من هـذا التناقض نشأت، بالنسبة إلى **أوغسطين**، ضرورة وسيلة نعمة موفرة سماوياً في هـذا العالم: ضرورة بنية كنسية ذات مرجعية ونفـوذ، يستطيع الإنسان في كنفها أن يلبـي حاجاته الملحة والطاغيـة إلى الإرشاد الروحي، والانضبـاط الأخلاقي، ونعمة أسرار الكنيسة.

لنظـرة **أوغسطين** النقدية إلى الطبيعة لازمتُها المتمثلة في رؤيته التقويمية للتاريخ العلمـاني. فبوصفه مطراناً ذا نفوذ في عصره، بقي **أوغسطين**، في المراحل المتأخرة مـن حياته، مشغـولاً بهاجسين ملحين: هاجس الحفاظ على وحـدة الكنيسة والتماثل العقـدي في مواجهة التأثير السلبي لعدد غـير قليل من حركات الهرطقة الرئيسة من جهـة، وهاجس التصدي التاريخي لسقـوط الأمبراطورية أمام الغزوات البربرية من جهة ثانية. ففي مواجهة الأمبراطورية المتداعية والزوال الظاهر للحضارة نفسها، لم

يـرَ أوغسطـين أي أمل واعد في أي تقدم تاريخي حقيقي في هذا العالم. رأى، بدلاً من ذلـك، ما يشـير إلى الهيمنة المطلقة والسلطة الدائمة للخطيئـة الأصلية، التي جعلت هذه الحياة عذاباً، جحيماً على الأرض، لا يستطيع انتشال الإنسان منه سوى المسيح، وهـو يرى فيض الشرور والفظاعـات، وسيل الحروب وجرائم القتـل، وجشع الإنسان واستكباره، وتحلـل الإنسان وغرقه في الرذيلة؛ وهو يرى آيات الجهل وصنوف المعاناة المفروضـة عنـوة على سائر البشر، جـاء رد أوغسطين على النقـد الأكبر الذي وجهه وثنيو روما الناجون إلى الديانة المسيحية -نقد أن المسيحية كانت قد أدت إلى تقويض وحـدة السلطـة الأمبراطوريـة الرومانية، ففتحـت الطريق أمام انتصـار البرابرة- متمثـلاً في طائفـة مغايرة مـن القيم مع رؤيـة مختلفة بشـأن التاريخ: مـا من تقدم حقيقي إلا ويكون، بالضرورة، روحياً ومتعالياً على هذا العالم ومصيره السلبي. أما ما ينطوي علـى أهمية بالنسبة إلى رخاء الإنسان فليس هو الكيان الأمبراطوري العالمي، بـل الكنيسة الكاثوليكية. وبمـا أن العناية الإلهية والخلاص الروحـي هما الركيزتان الأساسيتـان للوجـود الإنساني، فإن أهميـة التاريخ العلماني، بقيمـه العابرة وتقدمه المتذبذب والسلبي عموماً، متضائلة تبعاً لذلك.

ليس التاريـخ، مثل أبعاد الخلق الأخرى، برغم ذلك، إلا أحد تجليات إرادة الرب. إنـه مجسّد لغاية الرب الأخلاقية. والإنسان عاجز عن الاستيعاب الكامل لتلك الغاية في هـذا الزمن الحاضر، الغـارق في بحر من الظلام والفوضى، لأن مغزاها لن تتأكد صحتها إلا مع انتهاء التاريخ. ولكن الوجه العلماني للتاريخ ليس تقدمياً على نحوٍ إيجابي علـى الرغم من بقـاء تاريخ العالم خاضعاً لتحكم الرب، وروحيـاً من حيث التصميم (وبالفعـل فإن أوغسطين شبه تاريـخ العالم بلحن عظيم لمؤلف موسيقي معصوم عن الخطأ، لحن توزعت أجزاؤه على تراخيص كنيسة مناسبة لجميع الأحقاب) وبالأحرى فإن التاريـخ كان، بسبب نفوذ إبليس المستمر في هذا العالم، محكوماً، كما في الحرب الأبدية بين الخير والشر، بتجسيد تطور تقهقري حاسم للصفوة الروحية وكتلة هالكي الدنيـا. وعلى امتداد هذه المسيرة الملحمية المثـيرة كثيراً ما تبقى دوافع الرب خافية، ولكنهـا عادلة في النهايـة. ومهما تكن النجاحـات أو الإخفاقـات الظاهرية المتحققة

للأفـراد في هذه الحياة، فإنها كانـت كل شيء، مقارنة مع المصائر الأبدية التي كانت أرواحهم قد كسبتها. فخصوصيات التاريخ العلماني وإنجازاته لا تنطوي، بحد ذاتها، على أي أهمية. والأفعال في هذه الحياة ليست ذات شأن، إلا لأنها منطوية على عواقب أخرويـة، على ثواب أو عقاب سماويين. يبقـى بحث الروح الفردية عن الرب أولياً، في حـين أن التاريخ وهـذا العالم ليسا إلا مسرحين لتقديم تلـك الملحمة الدرامية للبحث عن الرب. والهروب من هذا العالم إلى العالم الآخر، من الذات إلى الرب، من الجسد إلى الروح، إن هو، إذًا، إلا الهدف الأبعد والتوجه الأسلم للحياة الإنسانية. أما النعمة الإنقاذية الوحيدة في التاريخ فمتمثلة في الكنيسة التي قام المسيح بتأسيسها.

بـدلاً من التوقع المسيحي لتغير عالمي حالٍ بالضـرورة إضافةً إلى أنه وشيك، بادر أوغسطين إلى نفض يده من هذا العالم الذي لم يكن نزوعه الساقط إلا سلبياً بطبيعته. فحسب وجهة نظر أوغسطين، كان المسيح قد نجح فعلاً في إلحاق الهزيمة بالشيطان، ولكـن في ملكوت الـروح المتعالية فقط، في ذلـك الملكوت الوحيد المنطـوي على أهمية حقيقية. إن الواقع الديني الحقيقي لم يكن خاضعاً لتقلبات هذا العالم وتاريخه، وهو واقع لا مجال لمعرفته إلا من خلال معايشة الفرد الداخلية للرب عبر وساطة الكنيسة، كما في الأسرار الكنسية.

وهنا بالذات دخل التأثير الأفلاطوني الجديد – الصعود الروحي الفردي، الداخلي، الذاتـي – على الخط، ونجح إلى حد معين في التفوق علـى المبدأ اليهودي القائم على نـوع من الروحانيـة التاريخية الجماعيـة، الخارجية. إن قيـام الأفلاطونية الجديدة باخـتراق المسيحيـة أدى إلى مضاعفته وتفسـير العنصر الصـوفي والداخلي للوحي المسيحي، ولا سيما ذلك الكامن في إنجيل **يوحنا**. غير أنها أسهمت بفعلها هذا، وعلى نحـوٍ متزامن، في اختزال عنصـر التطور التاريخي والجماعي الـذي كانت المسيحية البدائية، وخصوصاً مسيحية **بولس** ولاهوتيين قدماء جداً مثل **إيرينايوس**، قد ورثتها عـن اليهودية ودأبت على تطويرها جذرياً. إن إحساس **أوغسطين** القوي بإدارة الرب للتاريـخ – كما في السيناريو الملحمي الذي يقدمه عـن المجتمعين غير المرئيين للنخبة والهالكـين، لمدينة الرب ومدينة هذا العالم، المتصارعين على امتداد تاريخ الخلق إلى

ساعة الحساب الأخير – بقي عاكساً للرؤية اليهودية الأخلاقية القائلة: إن للرب هدفاً في التاريخ. وبالفعل، فإن من شأن مبدأ المدينتين أن يمارس قدراً كبيراً من التأثير في التاريخ الغربي اللاحق، مؤكداً استقلال الكنيسة الروحية عن الدولة العلمانية. غير أن استخفافه الشديد بما هو علماني، مضافاً إلى خلفيته الفلسفية، وميوله النفسية العميقة، وسياقه التاريخي، ما لبث أن تمخض عن تحويل تلك الرؤية وتوجيهها نحو تدين شخصي وداخلي منصب على العالم الآخر.

في جوانب جوهرية أخرى من فكر أوغسطين والنظرة المسيحية المتطورة إلى العالم – كما في ثنائية رب متعالٍ كلي القدرة مقابل مخلوق بشري مقيد بالخطيئة، والحاجة إلى بنية دينية متنفذة مبدئياً وأخلاقياً، متولية إدارة أسرة مؤمنين نخبة – كانت الحساسية اليهودية هي المهيمنة. وقد كان هذا بادياً خصوصاً في تطور مواقف المسيحية المميزة من وصايا الرب الأخلاقية.

### الناموس والنعمة

بالنسبة إلى اليهود، كان ناموس موسى دليلاً حياً، عماد ثباتهم الوجودي، الذي تولى أخلاقياً تنظيم حيواتهم، مع إبقائهم على علاقة جيدة مع الرب. وفيما كان التقليد اليهودي، كما مثله الفرّيسيون زمن يسوع، يدعو إلى الامتثال الصارم للقانون، فإن المسيحية المبكرة دأبت على تأكيد ما اعتقدت أنه كان رأياً مناقضاً مئة في المئة: صِيغ الناموس من أجل الإنسان وطُبق في محبة الرب، بما أدى إلى إلغاء الطاعة القسرية والدعوة، بدلاً من ذلك، إلى نوع من الاحتضان المحرِّر والقلبي الصادق لإدارة الرب، كما لو كانت إرادة ذاتية. أما توحد الإرادتين فلا تتوسطه إلا نعمة السماء، هبة الخلاص المجانية التي جلبها المسيح للبشر. من وجهة النظر هذه، لم يكن الناموس قادراً، بوصفاته السلبية المنقوشة في الصخر، إلا على فرض الطاعة بالخوف. أما بولس فقد بادر، على النقيض من ذلك، إلى إعلان عدم إمكانية تبرير الإنسان وتبرئته حقاً، إلا عبر الإيمان بالمسيح الذي يستطيع جميع المؤمنين أن يتعرفوا على مجانية نعمة الرب وحريتها من خلال فعله الإنقاذي. إن قيود الناموس جعلت الإنسان خاطئاً، ممزقاً ضد نفسه. أما المؤمن المسيحي فقد كان، بدلاً من أن يبقى في علاقة «عبودية»

مع الناموس، حراً؛ لأنه بات، بفضل نعمة المسيح، شريكاً في حرية هذا المسيح.

قبل اهتداء بولس إلى الناموس كان أحد الفريسيين، ومدافعاً متشدداً عن الناموس. أما بعد الاهتداء، فقد شهد بحماسة مهينة للذات على عجز الناموس، مقارنة بقوة حب المسيح وحضور الروح الفاعلين في الشخص الإنساني من الداخل. إلا أن فهم بولس للناموس كان يراه اليهود محاكاة تهكمية لطبيعة هذا الناموس الحقيقية. بالنسبة إليهم، كان الناموس نفسه هبة الرب، قادراً على فرض مسؤولية أخلاقية على الإنسان. كان يرى استقلال الإنسان وعمله الخيري من عناصر اقتصاد الخلاص الضرورية. وكذلك، فإن بولس سلّم أيضاً بدور معين لهذين العنصرين، غير أنه أكد أن حياته الخاصة شكلت أنموذجاً لعبثية التدين المحكوم بالناموس النهائية. ما هو أكثر من الجهد الإنساني، ولو كان مشرعاً سماوياً، كان مطلوباً من أجل الحصول على شيء أساسي وفوق إنساني، مثل انتشال الروح الإنسانية وإنقاذها. من المؤكد أن أعمال الخير والمسؤولية الأخلاقية ضرورية، ولكنها غير كافية. فقط هبة السماء العلوية المتمثلة في تجسد المسيح وتضحيته الذاتية جعلت تلك الحياة المتناغمة مع الرب التي كانت روح الإنسان شديدة التوق إليها ممكنة. إن الإيمان بنعمة المسيح، بدلاً من الامتثال الدقيق للوصفات الأخلاقية، كان أضمن طرق الإنسان إلى الخلاص، ودليل ذلك الإيمان تمثل في أعمال المسيحي القائمة على المحبة والخدمة التي جعلتها نعمةُ المسيح ممكنة. بالنسبة إلى بولس لم يعد الناموس هو السلطان الملزم؛ لأن غاية الناموس الحقيقية كانت هي المسيح.

بادر إنجيل يوحنا مؤكداً بالمثل القطيعة مع الناموس اليهودي، إلى إعلان ما يأتي: «**لأن الناموس أُعطي بموسى، وأما النعمة والحق فبيسوع المسيح حصلا**» (يوحنا: 17/1). إن إزالة التوتر بين إرادة الرب وإرادة الإنسان، بين الضبط الخارجي والنزوع الداخلي، ممكنة من خلال محبة الرب التي من شأنها أن توحد الإنساني والسماوي في روح أحادية واحدة. أما الاستيقاظ وصولاً إلى مثل هذه الحالة من المحبة السماوية، فمشروط باختبار ملكوت السماء. بات الإنسان الآن قادراً على التحلي بالاستقامة الحقيقية، لا قسراً بل طوعاً سعيداً، في عيني الرب، بسبب افتداء المسيح.

ولكن هذا التناقض في العهد الجديد بين التقييد الأخلاقي والحرية النازلة من السماء لم يكن، مع ذلك، بريئاً من الغموض. فاهتمام الأناجيل بالأخلاق فيما بين الأشخاص كان عنصراً مهيمناً في النظرة المسيحية، غير أن طابعه بدا قابلاً للتفسيرين كليهما. من جهة، بقيت نبرة تعاليم يسوع متطرفة في الغالب على صعيدي الحسم والحكم، مسبوكة بلغة الجدل المتشدد للطابع السامي، ومكثفة في ضوء آخر الأزمان الوشيك. وفي إنجيل متى يتم جعل الناموس حتى أكثر صرامة بالنسبة إلى أتباع يسوع -مع تطلب طهارة القصد جنباً إلى جنب مع الفعل، محبة العدو جنباً إلى جنب مع الصديق، العفو الدائم، العزوف الكامل والكلي عن جميع الأشياء الدنيوية- وتأكيد المطالبة بالاستقامة الأخلاقية، غير المشروطة إلى الحدود القصوى تحت إلحاح المرحلة الانتقالية المسيحية. ومن الجهة الأخرى، فإن تأكيد يسوع المتكرر كان للرحمة بدلاً من الاستقامة الذاتية، وللروح الداخلية بدلاً من النص الخارجي للناموس. فمطالباته بنقاء أخلاقي رفيع، بل ومطلق -قائم على محاكمة الأفكار العفوية جنباً إلى جنب مع الأفعال المدروسة والمتعمدة- بدت منطلقة من الافتراض المسبق لما يتطلب تحقيقه من مثل هذه الطيبة الداخلية ما هو أكثر من إرادة الإنسان، بما مهد الطريق إلى الإيمان بنعمة الرب. كثيراً ما كانت نيته تتبدى ميالة إلى توفير الراحة للفقراء، والحزانى، واليائسين، والمنبوذين والخطاة، مع الإصرار في الوقت نفسه على تحذير المتكبرين والراضين عن ذواتهم، أولئك الآمنين في مواقعهم الروحية والدنيوية. إن أي انفتاح متواضع على النعمة السماوية كان يعني ما هو أكثر من مجرد سلوك مستقيم حقوقياً. كان لا بد من اطراد قياس الناموس في ضوء وصية المحبة الأعلى الصادرة عن الرب. ووفقاً للعهد الجديد، فإن المدى الذي كانت أخلاق حقوقية معينة قد بلغته في إلحاق الهزيمة بالممارسة الدينية اليهودية كان دليلاً على أن الناموس كان قد ترسخ وتجمد مع مرور الزمن، نهاية باتت، بحد ذاتها، معسِّرة، لا ميسِّرة لعلاقة الفرد السليمة بالرب وبالآخرين.

ولكن حتى التجلي المسيحي الجديد لكرم الرب ونعمته كان عرضة لجملة من التفسيرات والعواقب المتناقضة، ولا سيما في ظل أحوال تاريخية لاحقة. فتأكيد بولس وأوغسطين لنعمة السماء بدلاً من أفعال الإنسان والاستقامة الذاتية أخلى مكانه، ليس

فقـط لمشيئة السماء، بـل ولاختزال فعلي لحرية إرادة الإنسـان الإيجابية، مقارنةً مع قدرة الرب الكلية. وفي الصراع من أجل الخلاص، كانت جهود الإنسان الخاصة غير ذات شـأن نسبياً؛ وحدها قوة الرب الإنقاذية كانت هـي الفاعلة. تمثل مصدر الخير الوحيـد في الرب، ورحمته فقط هي القادرة على إنقاذ البشرية وإبعادها عن الانزلاق الطبيعي للإنسان الساقط نحو درك الانحراف الأعمى. سائر بني البشر كانوا فاسدين ومذنبين بسبب خطيئة آدم؛ وَحْدَهُ موت المسيح كان قد كفَّر عن ذلك الذنب الجماعي. والبعـث الذي جلبه المسيح للإنسانية كان حاضراً في الكنيسة، والتبرير الذي كان كل إنسـان بحاجة إليه؛ كـي لا يهلك كان متوقفاً على أسـرار الكنيسة، تلك الأسرار التي كان الوصـول إليها يستدعي، بدوره، انسجاماً مع سلسلة معينة من المعايير الأخلاقية والكنسية.

نظـراً لأن الكنيسـة ومؤسساتها المقدسـة كانت أدوات سماوية الإقـرار، فإن هذه الكنيسـة كانـت ذات أهمية فـوق إنسانية، بتراتبيـة ذات مرجعية مطلقـة، ونواميس حاسمـة. ولأن البشـر كانـوا فطريـاً ميالـين إلى الخطيئـة ويعيشون في عـالم زاخر بالإغـراءات الدائمة، فإنهم كانـوا بحاجة إلى عقوبات صارمة محـددة من الكنيسة ضد أي أفعال أو أفكار منفلتة؛ للحيلولة دون سقوط أرواحهم الأبدية في المصير نفسه المنحط لأجسادهم المؤقتة. خصوصاً في الغرب، في ظل الضرورات التاريخية لمسؤولية الكنيسـة عـن المهتدين الجدد (وهـم بدائيون أخلاقياً من وجهة نظـر الكنيسة) من الشعـوب البربرية، جرى التأسيس لتراتبية رأسيـة طاغية في مؤسسة الكنيسة، حيث السلطة الروحية كلها منحدرة نزولاً، بعد انبثاقها من سلطان بابوي أعلى. وهكذا، فإن اللحـن المميز للكنيسـة المسيحية في القرون الوسطى -بقواعدهـا الأخلاقية المطلقة، ببنيتهـا الحقوقيـة في القرون الوسطـى القضائية المعقدة، بنظـام محاسبتها، بشأن أعمـال الخير والفضائل، بألوان تمييزها الحساس بين أصناف مختلفة من الخطايا، بمعتقداتهـا وأسرارها المقدسة، بقدرتها على فرض الحـرم، وبتشديدها القوي على منـع الجسد؛ حماية له من خطر السقوط الدائم - كثيراً ما بدا أكثر تذكيراً بالمفهوم اليهودي الأقدم لناموس الرب، بل مبالغة في تأكيد هذا المفهوم، منه بالصورة الأحادية الجديدة لنعمة الرب. غير أن ضمانات متقنة من هذه النوعية بدت ضرورية في العالم

الحالي المبتلي بالعصيان الأخلاقي والمخاطر العلمانية من أجل الحفاظ على منظومة أخلاقية مسيحية أصيلة وريادة عمليات اقتحام الكنيسة للحياة الأبدية.

### أثينا والقدس

ثمة ثنائية أخرى في منظومة العقيدة المسيحية انطوت على مسألة نقاوتها واستقامتها ومدى وجوب الحفاظ عليهما. فالنزوع اليهودي إلى الإقصاء الديني والنقاء العقدي كان أيضاً قد انتقل إلى المسيحية، مما أدى إلى الإبقاء على قدرٍ مطرد من التوتر مع العنصر الهليني الذي دأب على البحث، والاهتداء إلى نوع من الدليل على فلسفة سماوية في مؤلفات مفكرين وثنيين مختلفين، مؤلفات أفلاطون خصوصاً. وفي حين أن **بولس** كان أحياناً يشدد على الحاجة إلى تمييز المسيحية تمييزاً كاملاً عن أفكار الفلسفة الوثنية المضلّلة، التي تعين تجنبها، بادر، في مناسبات أخرى إلى اقتراح مقاربة أكثر ليبرالية، مستشهداً بشعراء وثنيين ومقحماً بمهارة عناصر مستمدة من الأخلاق الرواقية في التعاليم المسيحية (فمسقط رأس **بولس**: طرسوس في آسيا الصغرى كانت في عهده مدينة جامعية أممية اشتهرت خصوصاً بفلاسفتها الرواقيين). وهناك لاهوتيون مسيحيون لاحقون في الحقبة الكلاسيكية كانوا في الغالب مشبعين بالفلسفة اليونانية، قبل الاهتداء إلى المسيحية، فظلوا يجدون قيمة في التراث الهليني. ثمة نزعة صوفية توفيقية أفادت كثيرين من أوائل المفكرين المسيحيين في اندفاعهم إلى الاعتراف بوجود أنماط معاني مماثلة في فلسفات وديانات أخرى، منخرطين غالباً في اعتماد أسلوب التحليل المجازي لعقد المقارنات بين الأدبيات الإنجيلية ونظيرتها الوثنية. فالحقيقة واحدة، حيثما وُجدت، لأن **اللوغوس**، كلام الرب، كلي الشمول ومطلق الإبداع.

في تاريخ مبكر يعود إلى القرن الثاني بادر الشهيد جوستان أولاً إلى إطلاق لاهوت رأى كلاً من المسيحية والفلسفة الأفلاطونية ملهمتين بالرب المتعالي نفسه، مع إيحاء اللوغوس في الوقت ذاته بكل من العقل السماوي، والذكاء الإنساني، والمسيح المخلص المحقق للتراثين التاريخيين اليهودي والهليني كليهما. وفيما بعد قامت المدرسة المسيحية الأفلاطونية في الإسكندرية بتوظيف التربية البايديا paideia،

نظام التعليم الإغريقي الكلاسيكي الموروث عن عصر أفلاطون والمتمركز على الفنون الليبرالية والفلسفة، أساساً لها، ولكن مع جعل اللاهوت الآن أعلى العلوم وتاج المنهاج التعليمي الجديد. في هذا الإطار بات البحث والتعليم، من حيث الجوهر، صيغة من صيغ دراسة المسيحية، بل تقديسها. ومثل هذا البحث لم يبقَ محصوراً في التراث اليهودي - المسيحي، بل ما لبث أن تجاوزه للإحاطة بكل أوسع، لإضاءة المعرفة كلها بنور اللوغوس (العقل الكوني).

ثمة موقف توفيقي بامتياز، موقف قائم في الوقت نفسه على توظيف الثقافة الإغريقية المثيرة للإعجاب لأغراض اعتذارية مسيحية من جهة وعلى إبقاء نوع من المسافة بينه وبينها من جهة ثانية، عرضه كلمنت الإسكندراني (نسبة إلى الإسكندرية) لدى استخدامه **لأوديسة** هوميروس: قام أوديسوس مبحراً بالقرب من جزيرة الفاتنات في طريق العودة إلى إثياكا بربط نفسه بسارية سفينته؛ ليتمكن من سماع غنائهن الجذاب (امتلاك المعرفة الكاملة) دون الإذعان لإغوائهن أو التعرض للتحطم على شواطئهن الصخرية، كذلك أيضاً كان بوسع المسيحي الناضج أن يشق طريقه عبر زحمة الإغواءات الحسية والفكرية التي يزخر بها العالم العلماني والتراث الثقافي الوثني، مطلعاً عليها اطلاعاً كاملاً، دون التخلي عن معانقة الصليب -سارية الكنيسة- حفاظاً على الأمن الروحي.

ولكن المسيحية كثيراً ما كانت في الوقت نفسه أكثر شبهاً بأمها اليهودية على صعيد رفض أي اتصال مع جملة الأفكار والمنظومات الفلسفية غير المسيحية، عادَّةً إياها ليس فقط مدنسة، بل وعديمة القيمة. ومن وجهة النظر هذه، فإن النواة الحقيقية للغز المسيحي كانت شديدة التفرد والسطوع إلى درجة استحالة طمسها، أو تشويهها، أو تزويرها ما لم يتم حقنها بتيارات ثقافية أخرى. فالوجه الهليني للمسيحية، اللوغوس (بوصفه حكمة الرب، العقل الكوني) كان يُرى فاعلاً في الحكمة ما قبل المسيحية التي سبقت الوحي، كما في الإطار الأوسع لتاريخ العالم خارج التراث اليهودي - المسيحي. أما في الفهم الأكثر انغلاقاً، فإن اللوغوس (مفهوماً أكثر على أنه كلام الرب) لم يتم الاعتراف به إلا داخل حدود الكتاب المقدس، عقيدة الكنيسة، وتاريخ الإنجيل.

وبالمقارنة مع الإتقان العلماني للفلسفة الوثنية، فإن على الإنجيل المسيحي أن يبدو حماقة مجردة، ومن شأن أي حوار بينهما أن يكون عبثاً بلا جدوى. وهكذا، فإن تيرتوليان أقدم في القرن الثاني، وبإصرار، على مسألة مدى أهمية التراث الهليني مطلقاً عبارته المأثورة: «وما علاقة أثينا بالقدس؟».

زحمة من النظائر اللاهوتية والبدع الدينية – الغنوسطية، المونتانوسية، الدوناتية، البيلاجيوسية، الآريوسية (اليونان) – كانت مقيتة على نحوٍ استثنائي لدى السلطات الكنسية؛ لأنها دأبت على معارضة ودحض قضايا عزيزة على قلب الديانة المسيحية، فعُدت من ثم، هرطقات، خطرة، ومتطلبة لقدرٍ فاعل من الإدانة والشجب. ومطالبة المسيحية بوحدة العقيدة والبنيان، مع ما يصاحبها من تعصب، وجدت جزءاً من قاعدتها في الضرورة المسيحية الملحة –وهي متجلية خصوصاً في **بولس**– المتمثلة بكون جسد المسيح (أسرة الكنيسة) نقياً وبعيداً عن الانقسامات استعداداً للباروسيا Parousia (المجيء الثاني للمسيح). ومرة أخرى أقدم **أوغسطين** على اتخاذ موقف مؤثر ينطوي على عناصر من الجانبين، موقف مدعوم بالمعرفة والاحترام من الثقافة الكلاسيكية ولا سيما الفلسفة الأفلاطونية، ولكنه شديد الإدراك في الوقت نفسه لتفوق المسيحية العقدي الفريد، وقوي الفاعلية، ولا سيما مع التقدم في السن، في قمع الهرطقات. إن التفكير المسيحي في القرون المقبلة **لأوغسطين** بقي، عموماً، عاكساً لموقف مشابه. وبرغم سلسلة مطردة من التأثيرات، الواعية منها وغير الواعية، الآتية من منظومات فلسفية ودينية أخرى، فإن الكنيسة بقيت على الصعيد الرسمي متبنية موقفاً دوغمائياً (عَقَدِيًّا جامداً) ضيقاً ليس فيه إلا القليل من التسامح مع المنظومات الأخرى وفقاً لشروط هذه المنظومات الخاصة.

وهكذا، فإن شعور **أوغسطين** بالحاجة إلى تقييد أو إنكار (بالنسبة إليه هو كما بالنسبة إلى الآخرين) ما هو تعددي وهرطقي، وما هو بيولوجي، وما هو دنيوي، وما هو إنساني لصالح الرب، لصالح ما هو روحي، لصالح الكنيسة الحقيقية الوحيدة وعقيدتها المقدسة الموحدة، ما لبث أن تبلور في اللحظات الأخيرة من حياة العالم

القـديم، وبادر، مـن خلال تأثـيره المقيم والدائـم في شخصيات كنسيـة رئيسة مثل شخصيـة البابـا غريغـوري الأعظـم، إلى تقديم الكنيسـة الغربية القـرون الوسطى تجسيداً مؤسساتياً. وبسبب النفوذ المرموق لكفره، ولكتاباته، ولشخصيته، كما بسبب قيام **أوغسطين**، بمعنى من المعاني، بإنطاق الوعي الذاتي الوليد لحقبة جديدة، فإن تطور الحساسية المسيحية في الغرب تم، في جانب كبير منه، عبر وساطته. فمع نهاية الحقبـة الكلاسيكية، كانـت الروح الدينية المرحـة، والسعيدة، والمنفحـة المتجلية في المسيحيـة البدائيـة قد تطبعت بطابـع مختلف: طابع أميل إلى الانطـواء على الذات، وإلى التوجـه نحو العالم الآخر، وإلى المزيد من الحذلقة الفلسفية، وإن بقي في الوقت نفسه طابعاً أكثر اتصافاً بصفات المؤسسة، والقضاء، والعقيدة الجامدة.

## الـروح القـدس وتقلبـاتها

بكثـير من الوضوح تتركـز التوترات الكامنـة في قلب المسيحية منـذ بدايتها على عقيدة الروح القدس غير العادية، عقيدة القول بالروح القدس شخصاً ثالثاً في الثالوث المسيحي مع كل من الرب الأب والمسيح الابن. يقول العهد الجديد: إن يسوع كان، قبل موتـه، قد وعد تلامذته بأن الـرب كان سيرسل الروح القدس؛ ليبقى معهم لمواصلة مهمتـه الإنقاذية وإتمامها. و«هبـوط الروح القدس» اللاحق على فريق من الحواريين المجتمعين في عيد الحصاد في غرفة علوية بالقدس تم، كما قيل، بوصفه زيارة خارقة للطبيعـة بالغة الحدة، مصحوبة بصـوتٍ «أشبه بهبوب عاصفة قوية مالئة للغرفة» مع «ألسنـة لهب» ظاهرة فوق كل حواري. فُسر الحدث من قبل الحاضرين على أنه تأكيد قاطـع غير قابل للنقاش؛ لاستمـرار حضور المسيح بينهم برغـم موته وصعوده. وبعد ذلـك مباشرةً بادر الحواريون، حسب ما جـاء في أعمال الرسل، إلى الشروع في وعظ الحشود بحماسة وابتهاج: عبر الروح وصلت الكلمة إلى العالم؛ باتت ثمرة آلام المسيح قابلـة للتوزيع على البشرية كلها. وكما أن عيـد الحصاد كان قد شهد تجلي الناموس علـى جبل سيناء بالنسبة إلى اليهود، فإنه الآن شاهـد، بالنسبة إلى المسيحيين، على نـزول وحي جديد، وعلى تدفق الروح. إن عصراً جديـداً قد بدأ مع هبوط الروح على جميـع أفراد شعب الرب. وما لبثـت تجربة عيد الحصـاد أو العنصرة -من الواضح أنـه قد جرى تجديدها في لقاءات جماعيـة لاحقة، كما في ظروف أخرى منطوية على

ظواهـر كاريزمية، مثل عمليات الشفاء وحالات الانجذاب الصوفي النبوئية- أن باتت لاحقاً تشكل أساس عقيدة الروح القدس للكنيسة.

إن هذه العقيدة تصورت الروح القدس على أنه روح الحقيقة والحكمة (البارقليط، أو المحامـي)، إضافةً إلى كونه مبدأ الحيـاة السماوي المتجلي في كل من الخلق المادي والبعـث الروحي. في وجهـه الأول أو الإلهامي عُدّ الروح القدس منبع الإلهام السماوي الـذي كان قد تكلم من خـلال الأنبياء العبرانيـين. أما الآن فقد جـرى إلباس الروح ثوباً ديمقراطياً، جُعل في متناول جميع المسيحيين، بدلاً من إبقائه محصوراً في دائرة ضيقـة. وفي وجهـه الثـاني أو الخلاق عُدّ الـروح القدس أبا المسيح داخـل أمه مريم، وموجـوداً حاضراً في كهانة يسوع الأولى لدى قيام يوحنا المعمدان بتعميده. كان يسوع قد مات من أجل أن يتمكن الروح من أن يحل فينا جميعاً: فقط على هذا النحو أمكن إيصـال موت الإنسانية وبعثها إلى كمال الرب. وعبر التدفق المتواصل للروح، كان ثمة تجسـد تدريجي للرب في الإنسانية يتحقق، مجدداً وحافزاً الميلاد المقدس للمسيح في الجماعـة المسيحية المستمرة. وعلى الرغم من أن المحاكمات الفانية للكائن الإنساني كانـت عديمة القيمة وحدها، فإن بوسع المـرء اكتساب المعرفة السماوية عبر استلهام الـروح. ومع أن الإنسان عاجز بموارده الخاصة عن العثور على ما يكفي من المحبة في أعماقه للآخرين، فإنه يستطيع، عبر الروح، أن يهتدي إلى قدرٍ غير محدود من الحب الحاضـن لسائر البشر. إن الروح القدس هـو روح المسيح، هو عامل استعادة الإنسان إلى القداسـة، هو قوة الرب الروحية الفاعلة **باللوغوس** ومن خلاله. لقد وفر حضور الـروح القدس إمكانية المشاركة في حيـاة السماء، وتحقيق حالـة الاندماج بالكنيسة والذوبـان في بوتقتها، وهـي الحالة التي شكلت جوهر أي مشاركة في الرب. أخيراً، تم النظـر إلى الروح بوصفه أساس الكنيسة نفسها، معبرة عـن ذاتها في جميع جوانب حيـاة الكنيسـة، أسرارها، وصلواتهـا، وعقيدتها، وتراثها المتطـور، وتراتبها الهرمي الرسمـي، ومرجعيتها الروحية؛ لأن حضور الـروح القدس جالب للمرجعية والقداسة السماويتين إلى جماعة الكنيسة المؤمنة.

ولكـن الممارسة العفوية لـروح القدس سرعان ما دخلت في صـراع مع الضرورات

المحافظة للكنيسة المؤسسية. راح العهد الجديد يشبه الروح بنسيم يهب «حيثما يشاء». إلا أن الـروح كان، وهـو بهذه الصفة، متمتعـاً بميزات عفوية وثوريـة متأصلة جعلته، تحديـداً، خارج نطـاق أي تحكم. ومدّعو حضـور الروح من الأفراد بـدوا ميالين إلى إنتـاج إيحاءات يتعذر التنبؤ بمـدى تنوعها وظواهر كاريزمية. وفي الكثير من الأحيان كانـت مثل هذه التجليات -حركات سائبـة وغير مناسبة في قداديس الكنيسة، وُعّاظاً جوالـين حاملين رسائل متنوعة وغير أصولية- تبدو غـير مجدية فيما يخص المتابعة الإيجابية لرسالة الكنيسة. وبالنسبة إلى مثل هذه الظواهر لم ترَ أن سلطة روح القدس حاضـرة حقـاً. وإذا لم يتم تعريفه بقدرٍ أكبر من التحديـد، فإن مبدأ روح القدس في تجلياتـه الأكثر تطرفاً بدا منقلباً إلى تأليه إنساني تجديفي، أو فج في أفضل الأحوال، من شأنـه أن يشكل تهديداً لعملية الفصل التقليدي بين الخالق والمخلوق، وأن يتحدى التفرد السامي لمأثرة المسيح الإنقاذية.

بالنظـر إلى مثل هذا النزوع نحو ما هو مخرب وهرطقي، ومن منطلق الحاجة إلى الحفـاظ على بنية معتقـدات وطقوس منظمة، أقدمت الكنيسة علـى اعتماد رد سلبي عمومـاً على جملة الاعتراضات المعلنة ذاتياً علـى روح القدس. تزايد رفض التعبيرات الكاريزميـة واللاعقلانية عن الروح -حالات النشوة الروحية العفوية، عمليات الشفاء الإعجازيـة، التحدث بلغات، النبوءات، التأكيـدات الجديدة لإلهامات سماوية- مقابل الترحيـب بتجليات أكثر انتظاماً وعقلانية مثل المواعظ، والقداديس والطقوس الدينية المنظمة، والمرجعيـة المؤسسية، والتزمت العقدي. ثمة لائحة محددة من أعمال الرسل جـرى اختيارها بعناية واعتمادها على نحوٍ دائم دون الاعتراف بأي آيات وحي جديدة علـى أنها كلام الرب المعصـوم. ومرجعية الروح القدس التي أودعها المسيح في الرسل الأصليـين، مـا لبثت أن انتقلـت، عبر نظام راسـخ مقدس، إلى مطارنـة الكنيسة، مع مبـادرة بابا روما، خليفة بولس، إلى ادعاء امتـلاك السلطة النهائية العليا في الغرب. أما مفهوم الروح القدس بوصفه مبدأ سماوياً ذا طاقة روحية ثورية، كامنة في الجماعة الإنسانيـة ودافعة إياهـا باتجاه التأليه، فقـد تضاءل في الإيمـان المسيحي مفسحاً في المجـال أمام مفهوم روح القدس الكامن فقط في سلطـة الكنيسة المؤسسية وفاعليتها.

تلك هي الطريقة التي تم بها الحفاظ على استقرار الكنيسة واستمرارها، ولو على حساب قدرٍ أكبر من الأشكال الفردانية للتجربة الدينية والدوافع الروحية الثورية.

لم يتم تحديد علاقة الروح القدس بالأب والابن في العهد الجديد بدقة. وأوائل المسيحيين كانوا بوضوح أكثر اهتماماً بحضور المسيح والتحاقه بصفوفهم منهم بالصياغات اللاهوتية الدقيقة. وفيما بعد قامت المجالس الكنسية بتحديد الروح القدس، بوصفه الشخص الثالث في ثالوث الرب، حيث بادر **أوغسطين** إلى وصف الروح بأنه روح المحبة المشتركة الجامعة للأب والابن. لبعض الوقت في العبادات المسيحية المبكرة كان الروح القدس يُتصور على أنه مؤنث (يرمز إليه، كما حصل لاحقاً أيضاً بحمامة)، كما كان يشار إليه أحياناً على أنه الأم المقدسة. وعلى المدى الطويل بات تصور الروح القدس يتم من منطلقات أكثر عمومية ولا شخصية، بوصفه قوة عجيبة ومقدسة، بدت حدته متضائلة جذرياً، مع تزايد اتساع المسافة الزمنية الفاصلة عن جيل الرسل الأول، وباتت الآيات المتواصلة لحضوره، ونشاطه، ومرجعيته، مغروسة في مؤسسة الكنيسة في المقام الأول.

## روما والعقيدة الكاثوليكية

تعرض التأثير اليهودي في المسيحية في الغرب -الشعور بأداء رسالة تاريخية بتكليف من السماء، والتشديد على طاعة إرادة الرب، وعلى الصرامة الأخلاقية، وعلى الامتثال العقدي وعلى نزعة الاستبعاد- للمزيد من المضاعفة والتعديل بفعل تأثير روما. فتصور الكنيسة لعلاقة الإنسانية بالرب، بوصفها علاقة حقوقية محددة بصرامة بقانون أخلاقي كان مستمداً جزئياً من الناموس الروماني الذي ورثته الكنيسة الكاثوليكية، رومانية القاعدة، واعتمدته. وفاعلية عبادة الدولة الرومانية الدينية كانت مستندة إلى المراعاة المتشددة لحشد من الضوابط والتشريعات. وعلى نحوٍ أكثر جذرية، كان التشريع الروماني على الصعيدين النظري والعملي، معتمداً على فكرة التبرير أو التسويغ؛ فالخطيئة إن هي، لدى نقلها إلى ميدان الدين، إلا مخالفة إجرامية لنوع من العلاقة الحقوقية التي أقامها الرب بينه وبين الإنسان.

وعقيـدة التبرير أو التسويغ -للخطيئة، وللذنب، وللتوبة، وللنعمة، وللتعويض- طرحها بولس في رسالتـه إلى أهل رومية[26]، وتلقفها أوغسطـين ثانية، بوصفها قاعدة علاقة الإنسـان بالرب. وبالمثل، فإن الفرض اليهودي القاضي بإخضاع إرادة الإنسان عالية التطـور، ولكن المتمردة لإرادة مرجعية السماء وجد أنماطاً ثقافية مؤيدة في الخضوع السياسـي المطلوب من قبـل البنية السلطوية الهائلـة للأمبراطورية الرومانية. الرب نفسه كان يُنظـر إليه عموماً من منطلقات عاكسة للبيئة السياسية المعاصرة، بوصفه قائـداً وملكاً، سيـداً ورب عمل، عادلاً عدلاً مطلقاً دون جـدال، حاكماً صارماً للجميع ومتناهي السخاء والكرم، مع المفضلين عنده.

إن الكنيسـة المسيحيـة الحريصة علـى رسالتها الروحية وعلـى المسؤولية الكبيرة الواقعـة على كاهلها على صعيد الوصاية الدينيـة على البشر تطلبت صيغة استثنائية الـدوام لضمان بقائها ونفوذها في العـالم الكلاسيكي المتأخر. وجملة الأنماط والبنى الثقافية لكل من الدولة الرومانية والديانة اليهودية - السايكولوجية منها والتنظيمية والعقديـة - كانت مناسبـة جداً لتطور كيـان مؤسس قوي واعٍ لذاته قـادر على ريادة المؤمنـين والدوام عبر الزمن. ومع تطـور الدين المسيحي في الغرب، سارعت قاعدتها اليهوديـة إلى تمثل المواصفات التشريعية والسلطوية القريبة في الثقافة الأمبراطورية الرومانيـة، وتمـت قولبة جزء كبـير من طابع الكنيسـة الرومانية المميـز، وفقاً لتلك المواصفـات: سلطـة مركزية قوية، بنيـة قضائية معقـدة ضابطة للأخـلاق والروح، المرجعيـة الروحيـة الملزمة للقسـس والمطارنة، شـرط الطاعة على أعضـاء الكنيسة والتطبيق الفاعل لهذا الشرط، طقوس مؤطرة وأسرار ممأسسة، نزعة توسعية نضالية طـاردة تستهدف هداية البرابرة وتمدينهم، وما إلى كل ذلك. قيل: إن سلطة المطران مقـدَّرة من الـرب، وغير قابلة للنقاش. فهـو الممثل الحي لسلطة الـرب على الأرض؛ هـو حاكم وقاضٍ تعد قراراتـه فيما يتعلق بالخطيئـة، وبالكفر، وبالحـرم، وبقضايا دينيـة حيوية أخرى ملزمـة في السماء. فالحقيقة المسيحية نفسها، في ظل نفوذ روما، أصبحـت مسألة معارك حيويـة حقوقية، صراعات سياسيـة، فرمانات أمبراطورية، فروضـاً عسكرية، وصولاً، آخر الأمـر، إلى مسألة تأكيدات لمرجعية سماوية معصومة

يتمتع بها سلطان روما الجديد: البابا. أما الصيغ المرنة والمشاعية للكنيسة البدائية، فما لبثت أن أخلت مكانها، مرة وإلى الأبد، لمؤسسة كنيسة روما الكاثوليكية التراتبية الهرمية. غير أن العقيدة المسيحية تم الحفاظ عليها، والإيمان المسيحي تم نشره، ومجتمع مسيحي تمت صيانته في طول أوروبا القرون الوسطى وعرضها، في إطار بنية صارمة وشاملة كهذه.

في المدة التي أعقبت اهتداء **قسطنطين** إلى المسيحية أوائل القرن الميلادي الرابع، شهدت علاقة روما بالمسيحية انقلاباً كاملاً: كانت روما المضطهِدة (بكسر الهاء) قد أصبحت روما المدافعة، الدائبة على الذوبان التدريجي في بوتقة الكنيسة. باتت حدود الكنيسة متطابقة مع حدود الدولة الرومانية، وبات دورها متحالفاً مع الدولة على صعيد صيانة النظام العام وإدارة جملة أنشطة ومعتقدات كتلة المواطنين. ومع حلول عهد البابا **غريغوري** الأعظم -أنموذج البابوية في القرون الوسطى ومهندسها، الذي تولى السلطة مطلع القرن السادس- كان المجتمع الغربي قد تغير جذرياً إلى درجة أن بيان **أوغسطين** الجدلي (الديالكتيكي) ضد روح الحقبة الوثنية المتأخرة كان قد أصبح المعيار السائد للثقافة[27]. فالمسرح العام، السيركات، احتفالات الأعياد الوثنية، جرى استبدالها بالاحتفالات التقديسية المسيحية والمسيرات المقدسة، بالأعياد والعطل الدينية. كان ثمة إحساس جديد بنوع من المسؤولية العامة توغل في المسيحية لدى قيام الأخيرة باقتحام المسرح العالمي بوعي غير مسبوق لرسالتها المتمثلة في سيادة العالم روحياً. وعلى نحوٍ متزايد نجحت مؤسسة الكنيسة المتمركزة التراتبية، نظيرة الأمبراطورية الرومانية الدينية، في استيعاب زخم البحث الروحي المسيحي والتحكم به. فبمقدار ما أصبحت الأمبراطورية الرومانية مسيحية، أصبحت المسيحية رومانية.

كذلك كان لقرار قسطنطين القاضي بنقل عاصمة الأمبراطورية الرومانية شرقاً من روما إلى بيزنطة (التي أُعيدت تسميتها بالقسطنطينية) مضاعفات هائلة ومهمة بالنسبة إلى الغرب؛ لأن فراغاً سياسياً وثقافياً كبيراً حصل في أجزاء كبيرة من أوروبا بعد انقسام الأمبراطورية إلى قطاعين شرقي وغربي، وبعد انهيار الأمبراطورية الغربية في أعقاب الهجرات البربرية. صارت الكنيسة المؤسسة الوحيدة

القـادرة على صيانة ما يشبه نوعاً من النظام الاجتماعي والثقافة المتمدنة في الغرب، ونجـح مطران روما، بوصفـه الرأس الروحي للعاصمة الملكيـة، تدريجياً في استيعاب العديد مـن التمايزات والأدوار العائدة في السابـق إلى الأمبراطور الروماني. بادرت الكنيسـة إلى تولي سلسلة من الوظائف الحكوميـة والإدارية المختلفة وأصبحت سيدة المعرفـة والفنـون الوحيدة، صـار كهنتها الطبقـة المتعلمة الوحيـدة في الغرب، وصار البابـا المرجعية المقدسـة العليا، القادرة علـى تَطْيِيب الأباطرة والملـوك أو حرمانهم (إخراجهـم من دائرة الكنيسة). ومن المحتوم أن الـدول الجديدة التي تأسست فوق أنقاض الأمبراطورية الغربيـة، التي ما لبثت أن اهتدت إلى المسيحية بالتتابع، راحت تـرى رومـا البابوية مركـز المسيحية الروحي المتمتـع بالسيادة. وعلى امتـداد الألفية الأولى، لم تكتفِ الكنيسة الغربية بتركيز سلطتها بين يدي مطران أو بطرك روما، بل سعت بإصرار متدرج إلى تأكيد استقلالها عن الكنائس الشرقية المتمركزة في بيزنطة والمتحالفـة هناك مع الأمبراطور الشرقي الـذي كان لا يزال حاكماً. تضافرت عوامل المسافـات الجغرافية، وفروق اللغة، والثقافـة، والظروف السياسية، وجملة التأثيرات المختلفة لغزوات البرابرة والمسلمين، وسلسلة طويلة من النزعات والصراعات العقدية الكـبرى، ونزعـات الغرب الاستقلالية بالـذات أخيراً على توسيع الهـوة الفاصلة بين كنيسة روما اللاتينية وكنيسة بيزنطة اليونانية (الإغريقية)[28].

في ظل هذه الظروف، أُتيحت للمسيحية في الغرب فرصة تاريخية فريدة، اضطلعت الكنيسـة الغربية بسلطة كونية خارقة للعـادة في أوروبا القرون الوسطى. متحررة من كنيسة الشرق ودولته، منعتقة من جملة البنى المدنية والعلمانية السابقة للأمبراطورية القديمة في الغرب، ومدعَّمة بتدين الشعوب والحكام. ما لبثت كنيسة روما أن أصبحت ليس فقـط نظيرة الأمبراطورية الدينيـة، بل وخليفتها التاريخيـة. والصورة الذاتية المثاليـة لكنيسة القـرون الوسطى الناشئة تمثلـت بلوحة **عصر سـلام روماني** روحي مهيمـن على العالم تحـت ريادة هيئة كهنوتيـة تراتبية حكيمة ورحيمـة. **وأوغسطين** بالـذات كان قـد حلم بسقوط رومـا القديمة، تلـك الأمبراطورية الزمنيـة، في ضوء روما جديدة، الأمبراطوريـة الروحية للكنيسة المسيحية، التي بدأت مع الرسل وكانت ستستمر عبر التاريخ انعكاساً لصورة ملكوت الرب السماوي في هذا العالم. وبتصرفه

هـذا كان **أوغسطين** يسهم في عملية الانتقال التاريخية التي أقدمت عليها المسيحية، وهـي تعيد فهم طبيعـة مملكة السماء الموعودة من منطلـق الكنيسة الموجودة[29]. ومع تقدم قرون العصور الوسطى وقيام الكنيسة تدريجياً بترسيخ مرجعيتها وسطوتها في روما، انبثقت كنيسة روما الكاثوليكية، على نحوٍ قاطع وحاسم، بوصفها المؤسسة ذات المرجعية الكونية الصحيحة الوحيدة التي أوكل الرب إليها مهمة إنقاذ الإنسانية.

## مـريم العـذراء والكنيسـة الأم

تمخض اهتداء جماهير الوثنيين إلى الديانة المسيحية على نطاق واسع في المراحل المتأخـرة من تاريخ الأمبراطورية الرومانية عن تطور لافت آخر في الديانة المسيحية. علـى الرغم مـن أن العهـد الجديد لم يوفـر إلا القليل مـن المعلومات عـن مريم، أم يسـوع، والقليـل عن التأييـد الصريح لأي دور مهـم يمكنها أن تضطلع بـه في كنيسة المستقبـل، فإن تقديسـاً غير عادي لمريم، انبثق عفوياً وترسـخ، بوصفه أحد العناصر المهيمنة في الرؤية المسيحية الشعبية، خلال الحقبة الكلاسيكية المتأخرة من العصور الوسطـى. فالعهـدان القديم والجديد كانا، كلاهما، وعلى نحـوٍ شبه متطابق، أبويين (بطريركيين) في توحيدهما (في عقديتهما التوحيدية)، غير أن الحشود الوثنية التي اهتـدت إلى المسيحية في أمبراطورية ما بعد **قسطنطين** جلبت معها تقليد الإلهة الأم العظيمة ذا الجذور الراسخة (جنباً إلى جنب مع عدد غير قليل من الأمثلة الأسطورية لعـذراوات مقدسـات وولادات عـذارى لأبطال مقدسين)، ذلك التقليـد الذي ما لبث إدماجه بالتدين المسيحي أن أفضى إلى إحداث تعزيز ذي شأن لمدى احترام الكنيسة لمـريم، غير أن الأخيرة بقيت، مع ذلك، مختلفة جذرياً عـن إلهات الوثنيين، بوصفها الشخصيـة التاريخية المحورية في عملية تجسد المسيح غـير القابلة للتكرار، بدلاً من إلهة طبيعة متولية إدارة دورات أزلية من الموت والبعث. من التربة الأسطورية الوثنية انبثـق نوع من الولاء المكثف لمـريم التي ما لبث دورها وشخصيتها أن جرى تطويرهما في إطار فهم مسيحي مميز.

مـن منطلق الخلفية التوراتيـة وحدها، لم يكن إضفاء مثل هـذا الدور الرفيع على مريم في التدين المسيحي تطوراً متوقعاً. فالإشارات إلى مريم في الأناجيل ليست موسعة،

كما أنها ليست كلية التطابق. حين تتلقى في إنجيل لوقا الإعلان الملائكي لاحتمال حملها، يجري تصويرها كريمة الامتثال لمشيئة الرب، مدركة للدور الخاص الذي ستضطلع به في مخطط السماء، فريدة التناسب مع هذا الدور بفضل طهارتها الكلية على الصعيدين الجسدي والنفسي. غير أن مقاطع في إنجيل مرقص، مستندة ربما إلى تراث أقدم، تصور شخصية إنسانية أكثر أنموذجية، موحية بأنها ربما لم تكن واعية لدور يسوع السماوي خلال جزء كبير من حياته. وكذلك في مرقص ثمة إشارات إلى تمتع يسوع بعدد غير قليل من الأقارب المقربين، ربما من الأشقاء والشقيقات، الذين بدوا، مثل أمه، معارضين يسوع في المراحل الأبكر من إدراكه الذاتي لرسالته. وحتى الإنجيل وفق رواية **يوحنا** يتضمن إشارات إلى توتر محدد بين مريم وابنها. كذلك يبقى الدليل التوراتي على كون مريم عذراء، حين حملت وأنجبت غامضاً. ثمة إنجيلان، **مرقص ويوحنا**، لا يأتيان على ذكر الموضوع بالمطلق، مثلهما مثل رسائل بولس. أما إنجيلا **متى ولوقا** اللذان يفعلان فليسا مطردين ضمنياً؛ لأن الروايتين، كلتيهما، تقدمان شجرتي نسب تبينان انتساب يسوع المباشر إلى داود (واصلاً، مع لوقا، إلى آدم)، وتنتهيان بزوج **مريم يوسف**، لا بمريم نفسها.

ولكن **مريم**، مع اعتراف المؤمنين بأنها العذراء، ومع قيام اللاهوتيين بتصويرها، بوصفها أداة تجسيد **لوغوس** (كلام) السماء، سرعان ما أُلبست أثواب التبجيل في الكنيسة الأولى، بوصفها حلقة الوصل بين البشرية والمسيح بل وبوصفها مرتبطة عضوياً بالمسيح. في داخل **مريم** كان الاندماج الأول بين ما هو سماوي وما هو بشري قد حصل. ونظراً لأن المسيح عُدّ هو آدم الثاني، فإن **مريم** عُدّت حواء الثانية، جالبة الخلاص للبشرية والطبيعة، ومصوِّبة عصيان حواء العذراء الأولى، من خلال حملها العذري الامتثالي الطوعي. انتصبت **مريم** مثلاً أعلى لسائر تلك الفضائل المميزة للمزاج والروح المسيحيين، مثلاً أعلى للطهر والعفة، للطف والتواضع، لآيات البساطة، والحلم، والبركة الخالصة، والجمال الداخلي، والبراءة الأخلاقية، ونكران الذات، والاستسلام لمشيئة السماء.

إن الجمع من خلال **مريم** بين عنصر التغذية النسوية المستمدة من الإلهة الأم

الوثنيــة العظيمــة وعلاقة الأخيرة الجذريــة بالطبيعة أسهم في إضفــاء النعومة على الــرب اليهــودي المتعالي والذكــوري الأكثر تشــدداً. ورفع مريم إلى ما هــو قريب من مرتبــة أم إلهية أدى أيضاً (بالنسبة إلى الوثنيــين المهتدين) إلى توفير تتمة ضرورية للــرب الأب الوحيد والمطلق على نحوٍ يتعذر تفسيره دونها. إن الاعتراف بالأم العذراء وعبادتها أديا إلى جعل الهيكل المسيحي أكثر تناغماً مع الإحساس الكلاسيكي بالعالم وشكلا جســراً قوياً بين المسيحية وديانات الطبيعة الوثنيــة المؤمنة بالبعث بعد الموت. غير أن دور مريم العذراء بقي في سياق التاريخ الإنساني، في حين أن الإلهات الأمهات السابقات كن يضطلعن برئاسة الطبيعة. ومما انطوى على قدرٍ كبير جداً من الأهمية في نظــر أوائــل اللاهوتيين أن علاقة أمومــة مريم الإنسانية بالمسيــح ضمنت إنسانية الأخــير الحقيقية الثابتة، في مواجهة بعض المزاعم الغنوسطية القائلة: إن المسيح لم يكن إلا كياناً مقدساً فوق إنساني حصراً.

أحيانــاً، بدا التبجيل الشعبي الواســع لمريم من وجهة نظر الكنيسة متجاوزاً حدود إمكانيــة التبريــر اللاهوتــي. إلا أن تلك المشكلة مــا لبثت أن حُلت عــن طريق تماهي **مــريم العــذراء** مــع الكنيسة. فنظــراً لأن **مريم** كانــت المؤمنــة الأولى بالمسيح جراء تسليمها بإعلان ميلاده السماوي، وأولى من استقبلت المسيح في أحشائها من البشر، فإنها مثلت الأنمــوذج الأصلي الأول للجماعة الكنسية كلها. وفيما يخص جانب مريم الاستقبالي والعذري، تم النظر إلى الكنيسة على أنها «عروس المسيح» المرشحة للتوحد مــع المسيح، حين تتلقى البشرية الفيض السماوي الكامل آخر الزمن. غير أن ما كان أكــثر انطواء على الأهمية تمثل في تماهي مواصفــات الأمومة لدى مريم مع الكنيسة: فــ «الكنيسة الأم المقدسة» أصبحت، في ظل الرعاية الكامنة لمريم، ليس فقط تجسيد الإنسانيــة المسيحيــة، بل والنسيج أو القــوام المغذي الذي يمكن مــن خلاله احتضان جميع المسيحيين، وحمايتهم، وإرشادهم[30].

وهكــذا، فإن المسيحيــين تصوروا أنفسهــم أولاد الكنيسة الأم مــن ناحية، والرب الأب مــن ناحية ثانيــة في الوقت نفسه. ومن ثم فإن صــورة الأمومة المرضعة والمغذية **لمريم** العذراء والكنيسة الأم قامت بتكملة وتعديل، ليس فقط الصورة الأبوية المتجهمة

ليهوه التوراة، بل وميل الكنيسة الخاص إلى النزعتين الحقوقية الصارمة من جهة والتسلطية الأبوية من جهة ثانية[31]. حتى فن عمارة مباني الكنيسة، بمداخلها المضيئة وبناها الرحمية المقدسة، ذلك الفن الذي بلغ أوجه في كاتدرائيات القرون الوسطى العظيمة، دأب على إعادة خلق هذا الإحساس الملموس برحم الأم العذراء المقدس. والكنيسة الكاثوليكية بمجملها تولت مهمة الاضطلاع بالدور الثقافي الكوني الشامل لرحم روحي، وفكري، وأخلاقي، واجتماعي حاضن للجميع، حامل للجماعة المسيحية الوليدة، لجسد المسيح اللغز، قبل ولادته في ملكوت السماء. لعل تقديس مريم وإضفاء قداسة أمومتها على الكنيسة هما اللذان وفرا الضمانة الأنجح للحفاظ على عنصر التوحيد المسيحي في الروح المسيحية الجماعية.

## خلاصة

ارتدى الوحي المسيحي البدائي أثواباً ثقافية وفكرية مختلفة – يهودية، إغريقية وهلينية، غنوسطية (عرفانية) وأفلاطونية جديدة، رومانية ومشرقية دنيا – نجحت المسيحية في إذابتها في بوتقة فريدة في دوامها، وإن بقيت ملأى بالتناقضات في الغالب. وتركيبة البوتقة تلك التعددية في أصولها، ولكن الأحادية في صيغتها المتطورة كان من شأنها أن تتولى عملياً إدارة العقل الأوروبي حتى النهضة.

تعالوا نحاول رسم عدد قليل من خطوط التمايز الوجيزة فيما بين هذه النظرة، وتلك التي كانت سائدة في الحقبة الإغريقية – الرومانية، مركزين خصوصاً هنا على طابع الرؤية المسيحية في الغرب من الحقبة الكلاسيكية المتأخرة، وصولاً إلى العصور الوسطى المبكرة. وفي هذا الإطار المرجعي، مع السماح بعدم الدقة الحتمي في مثل هذه التعميمات، يستطيع المرء أن يقول: إن التأثير الإجمالي للمسيحية في العقل الإغريقي – الروماني كان على النحو الآتي:

(1) إقامة هيئة تراتبية أحادية في الكون، عبر الاعتراف برب أعلى واحد، الثالوث الخالق وسيد التاريخ، وصولاً إلى استيعاب ونفي تعددية الديانة الوثنية، مع العمل على الحط من قيمة ميتافيزيقا الصيغ الأنموذجية الأصلية، وإن دون استئصالها.

(2) تعزيز ثنائية الروح – المادة الأفلاطونية من خلال حقنها بعقيدة الخطيئة الأصلية، وسقوط الإنسان والطبيعة، والذنب الإنساني الجماعي، من خلال حرمان الطبيعة إلى حدٍّ كبير من أي قداسة كامنة، مشركة كانت أم موحِّدة، برغم إبقاء العالم هالة ذات وهج فوق طبيعي، رحمانية كانت أم شيطانية، ومن خلال الاستقطاب الجذري للخير والشر.

(3) إضفاء الصفة الدرامية (الملحمية) على علاقة المتعالي مع ما هو إنساني من منطلق إمساك الرب بدفة التاريخ، وقصة الشعب المختار، والظهور التاريخي للمسيح على الأرض، وعودة ظهوره اللاحقة لإنقاذ البشرية في مستقبل عصر رؤيوي مشحون بالكارثة، مستحدثاً بذلك إحساساً جديداً بحركية تاريخية، بمنطق خلاصي سماوي في تاريخ كان خطياً بدلاً من أن يكون دورانياً؛ دائباً مع ذلك على التدرج في زرع هذه القوة الخلاصية في الكنيسة المؤسسية القائمة، مستعيداً بذلك على نحوٍ مضمر فهماً للتاريخ أكثر اتصافاً بالسكون[32].

(4) استيعاب أسطورة الإلهة الأم الوثنية وتحويلها وصولاً إلى إذابتها في بوتقة لاهوت مسيحي جرى إلباسه ثوباً تاريخياً، فيه مريم العذراء الأم البشرية كما في بوتقة واقع تاريخي واجتماعي متواصل في صيغة الكنيسة الأم.

(5) تقليص قيمة مراقبة العالم الطبيعي، تحليله، أو فهمه، وصولاً إلى الاستخفاف بالمواهب التحليلية والتجريبية، أو إنكارها لمصلحة ما هو عاطفي، وأخلاقي، وروحي، مع حصر سائر المواهب الإنسانية بمتطلبات الإيمان المسيحي وإخضاعها لمشيئة الرب.

(6) شجب قدرة الإنسان على التوغل الفكري أو الروحي المستقل في معنى العالم، من منطلق كون الكنيسة والكتب المقدسة صاحبة السلطة والمرجعية المطلقتين في قضية الفصل النهائي لقضية الحقيقة.

لقد قيل: إن الغيوم المانوية خيَّمت على خيال القرون الوسطى. فكل من التدين

المسيحي الشعبي من ناحية وجزء كبير من اللاهوت في القرون الوسطى من ناحية ثانية دل على قدرٍ حاسم من اهتراء العالم المادي والحياة الحالية، مع تكرار حشر «العالم، الجسد، والشيطان» في سلة واحدة بوصفها، ثالوثاً شيطانياً. كانت إماتة والجسد ضرورة روحية مميزة. أما العالم الطبيعي فكان وادي البؤس والموت، وقلعة الشر التي كان سيتم انتشال المؤمن منها؛ إشفاقاً عليه عند انتهاء هذه الحياة. فالإنسان لا يأتي إلى العالم إلا مرغماً، شأنه شأن فارس مقتحم لبؤرة ملأى بالأشباح والخطايا؛ آملاً فقط في المقاومة، وتحقيق الغلبة، والعبور إلى الضفة الأخرى. بالنسبة إلى كثيرين من أوائل لاهوتيي العصر الوسيط كانت الدراسة المباشرة للعالم الطبيعي والعمل على تطوير عقل إنساني مستقل تبدوان تهديدين بغيضين لتماسك الإيمان الديني. صحيح أن خير قيام الرب بالخلق المادي لم يكن مرفوضاً كلياً، وفقاً للعقيدة المسيحية الرسمية، غير أن العالم بالذات لم يكن يُعد هدفاً جديراً بمسعى الإنسان وتعبه. بالمعنى الروحي بدا العالم غير ذي شأن إلى حد كبير، وإن لم يكن شراً من ألفه إلى يائه.

مصير الروح الإنسانية محسوم سلفاً من السماء، يعرفه الرب قبل بدء الزمن، اعتقاد ومدعوم نفسياً ويتوازى مع العجز الظاهر لإنسان العصر الوسيط المبكر في مواجهة الطبيعة، والتاريخ، والسلطة التقليدية. قد تكون ملحمة حياة الإنسان بؤرة اهتمام مشيئة الرب، إلا أن دور هذا الإنسان بقي ضعيفاً وثانوياً. فبالمقارنة، مثلاً، مع أوديسة هوميروس، من الممكن رؤية الفرد في القرون الوسطى عاجزاً نسبياً أمام الشر والعالم، شخصاً تائهاً في غياب إرشاد الكنيسة وحمايتها المطردين. («الهيام» هنا ليس مغامرة بطولية بمقدار ما هو انزلاق هرطقي إلى مهاوي الكفر). والمقارنة مع سقراط، مثلاً، بدا من الممكن رؤية المسيحي في القرون الوسطى معانياً من حصار فكري لا يستهان به. («الشك» هنا ليس أولى الفضائل الفكرية بمقدار ما هو إخفاق روحي خطير). أما تأكيد فردية الإنسان -وهو أمر كان شديد التفشي في أثينا أيام بريكليس، مثلاً- فقد بدا الآن مرفوضاً إلى حدٍّ كبير لمصلحة نوع من التسليم الورع بإرادة الرب، وبلغة أكثر عملية، نوع من الإذعان لسلطة الكنيسة الأخلاقية، والفكرية، والروحية. وهكذا، فإن من مفارقات المسيحية الكبرى أن رسالة كان جوهرها الأصلي

ذلك الجوهر المتمثل في البعث السماوي للكون، محطة تحول الدهور عبر التجسد الإنساني للوغوس (كلام الرب) قد رفعت على نحوٍ غير مسبوق أهمية حياة الإنسان، وتاريخ الإنسان، وحرية الإنسان، ما لبث أن بات مضطلعاً بمهمة فرض تصور نقيض إلى هذا الحد أو ذاك.

ولكن النظرة المسيحية إلى العالم، حتى في صيغتها عبر القرون الوسطى، لم تكن على هذه الدرجة من البساطة وأحادية النظرة التي قد توحي بها هذه الفروق. فالحافزان كلاهما -المتفائل والمتشائم، الثنائي والأحادي- بقيا دائمي الاندماج في تركيبة يتعذر تفكيكها. وبالفعل، فإن الكنيسة رأت أن أحد طرق الاستقطاب كان يجعل الآخر ضرورياً وأن المصير السماوي العظيم للمسيحي المؤمن والجمال الفائق للحقيقة المسيحية كانا، مثلاً، يستدعيان اعتماد مثل هذه التدابير القوية من التحكم المؤسسي والصرامة العقدية. وفي نظر عدد كبير من ذوي الضمائر الحية المسيحيين، فإن واقع استمرار الصيانة الناجحة للوحي والطقس المقدسين قرناً بعد قرن أهم بكثير من الشرور العابرة لسياسة الكنيسة المعاصرة أو التشوهات المؤقتة للمعتقدات الشعبية والعقيدة اللاهوتية. ومن مثل هذا المنطلق نرى أن رحمة الكنيسة المنقذة كامنة آخر المطاف في الأهمية الكونية الشاملة لرسالتها الأرضية. أما الأخطاء الظاهرة للكنيسة العادية فلم تكن إلا آثاراً جانبيةً حتمية للمسعى الإنساني غير المثالي في سبيل تنفيذ خطة ذات مدى بالغ الاتساع على نحوٍ غير قابل للتصور. ومن منطلقات مشابهة، جرى النظر إلى العقائد الجامدة والطقوس المسيحية على أنها فوق وخلف المحاكمة المستقلة للمسيحيين الأفراد - كما لو أن جميع المسيحيين كانوا مكلفين بالاستغراق في عمليات التمثيل الرمزي لحقائق الكون، وهي حقائق ليست آيات سموها وعظمتها في متناول المؤمن على نحوٍ مباشر، وإن كانت مرشحة مع الزمن لأن تصبح قابلة للفهم مع التقدم الروحي للإنسانية. ومهما كانت ضآلة مسيحيي العصر الوسيط الوجودية البادية، فإن هؤلاء كانوا متأكدين من أنهم المستفيدون المحتملون من نعمة المسيح الإنقاذية، عبر الكنيسة التي قامت برفعهم إلى ما فوق سائر الشعوب في التاريخ، وبإبطال أي مقارنة سلبية مع الثقافات الوثنية.

غير أننا كنا ضمناً، في مقارنة حقبة بأخرى، بعيداً عن مثل هذه الدفاعات الدينية، دائبين على وضع الشخص المتوسط في المراحل الأولى من المسيحية الغربية في القرون الوسطى في مواجهة فريق صغير نسبياً من اليونانيين اللامعين الذين ازدهروا خلال مدة وجيزة نسبياً تميزت بإبداع ثقافي فريد مطلع الحقبة الكلاسيكية. لم يكن الغرب في القرون الوسطى خالياً من العباقرة، حتى ولو كانوا قليلين ونادري التأثير في القرون الأولى. أما الزعم بأن هذا الشح كان عائداً إلى المسيحية أكثر من عودته إلى عوامل تاريخية أخرى، فمن شأنه أن يكون تهوراً وطيشاً، ولا سيما بالنظر ليس فقط إلى انحطاط الثقافة الكلاسيكية قبل صعود المسيحية بزمن طويل، بل وإلى جملة الإنجازات الخارقة للثقافة المسيحية اللاحقة أيضاً. وعلينا ألا ننسى أن سقراط حُكم عليه بالإعدام من قبل النظام الديمقراطي في أثينا؛ بسبب «اللاتقوى، كما لم يكن الفيلسوف أو العالم الوحيد الذي تمت إدانته بسبب آرائه غير الأصولية في العصر القديم. وبالمقابل، فإن الفرسان الآرثريين في القرون الوسطيين للكأس المقدسة لم يكونوا خلفاء غير جديرين لأسلافهم الهوميريين. فنزعة المغامرة والدغمائية موجودتان بالتأكيد في جميع العصور، حتى وإن تعرض التوازن فيما بينهما للتغييرات، ومما لا شك فيه أن أحد الطرفين يؤدي إلى حفز الطرف الآخر على المدى الطويل. وعلى أي حال، فإن أي مقارنة نفسية أعم بين العصرين الوسيط والكلاسيكي من شأنها أن تكون أكثر إنصافاً وأن تشي، ربما، بقدرٍ أقل من التباين.

من الممكن، بالتأكيد، القول: إن مكاسب معنوية واجتماعية تراكمية معينة تحققت للشعوب الوثنية والبربرية التي اهتدت إلى المسيحية، والتي جرى تثقيفها أسبوعاً بعد أسبوع، سنة بعد سنة، بجدوى إضفاء قيمة جديدة على قداسة الحياة الفردية، والاهتمام برخاء الآخرين، والصبر، والتواضع، والعفو، والرحمة. وفي حين أن الحياة الانطوائية كانت في العصور الكلاسيكية من مميزات قلة من الفلاسفة، فإن التركيز المسيحي على المسؤولية الشخصية، وعلي الخطيئة، والاستقالة من الحياة العلمانية، شكل تشجيعاً على الاهتمام بالحياة الداخلية بين صفوف دائرة أوسع بما لا يقاس من السكان. وعلى النقيض مما كان سائداً في قرون غابرة من شك فلسفي واغتراب ديني

مزعجين غالباً، فإن النظرة المسيحية إلى العالم طرحت رحم تغذية روحية وعاطفية مستقراً، عصياً على التغيير، تكون فيه كل نفس إنسانية ذات شأن في إطار المخطط الأكبر للأمور. ثمة شعور بنظام كوني بات سائداً، ومن شأن المبالغة في تقويم الطاقة الكاريزمية العظيمة الكامنة في شخصية يسوع المسيح العليا الجامعة لمجمل الكون المسيحي الشاملة أن تكون صعبة. ومهما كانت القيود التي ربما أحس بها مسيحيو العصور الوسطى، فإن من شأن ذلك أن يكون قد تم التعويض عنه بنوع من الوعي المكثف لمكانتهم المقدسة، مع خلاصهم الروحي المحتمل. وعلى الرغم من أن حياة الإنسان قد تكون امتحاناً الآن، فإن الخطة السماوية للتاريخ بدت دائبة على الدفع التدريجي للمؤمنين باتجاه العودة النهائية إلى التوحد مع الرب. وبالفعل، فإن قوة الإيمان، والأمل، والحب عظيمة، من حيث المبدأ، قادرة على إلغاء كلمة «مستحيل» من قاموس الكون المسيحي، وعلى امتداد حقبة طويلة، كانت غالباً مظلمة وزاخرة بالفوضى، نجحت النظرة المسيحية إلى العالم في رفع راية واقع ملكوت روحي مثالي، يستطيع فيه جميع المؤمنين، أولاد الرب، أن يجدوا ملاذاً يأويهم ويحتضنهم.

إذا نظرنا الآن استعادياً إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في أوج مجدها أواسط العصور الوسطى، حيث أوروبا كلها تقريباً كاثوليكية، وحيث تاريخ البشرية متركز رقمياً على ميلاد المسيح، وحيث بابا روما هو الحاكم الروحي، بل والزمني في الغالب، وحيث جماهير المؤمنين مشبعون تقوى مسيحية، وحيث الكاتدرائيات القوطية البديعة منتصبة، وحيث فيض الأديرة والكنائس، والكتبة والباحثون وآلاف الرهبان، والخوارنة، والراهبات، وحيث الرعاية المنتشرة على نطاق واسع للمرضى والفقراء، وحيث الشعائر المقدسة، والأعياد العظيمة بمواكبها ومهرجاناتها، والفن الديني المجيد للتراتيل الغريغورية، وجملة المسرحيات الأخلاقية المستمدة من قصص الإعجاز، وشمولية اللغة اللاتينية على الصعيدين الطقسي والبحثي، والحضور الكلي للكنيسة والتدين المسيحي في جميع ميادين النشاط الإنساني، هذا كله لا يسعه إلا أن يثير قدراً معيناً من الإعجاب بضخامة وعظمة نجاح الكنيسة في بناء صرح ثقافي مسيحي كوني شامل وفي أداء رسالتها الأرضية[33]. ومهما كانت صحة المسيحية الميتافيزيقية

الفعليــة، فإن الاستمرار الحي للثقافة المتمدنة الغربيــة بالذات مدين بوجوده لحيوية وانتشار الكنيسة المسيحية في طول أوروبا في القرون الوسطى وعرضها.

غــير أن علينــا، ربما، أن نحــذر، قبل كل شيء مــن محاولة إسقــاط معايير حكم علمانية حديثة على النظرة العالمية لحقبة أبكر. إن السجل التاريخي يشي بأن المبادئ الأساسيــة لإيمــان مسيحيــي العصــر الوسيط لم تكــن عقائد مجــردة مفروضة من مرجعية كهنوتية، بل الجوهر الحقيقي لتجربتهم بالذات. أعمال الرب أو الشيطان أو العــذراء مريم، حالتا الخطيئة والخلاص، توقــع مملكة السماء، ذلك كله كان مبادئ مفعمــة بالحياة، داعمة ومحركة للعــالم المسيحي عملياً. علينا أن نفترض أن التجربة في القرون الوسطى لواقع مسيحي محدد كانت ملموسة وواضحة ذاتياً، شأنها، مثلاً، شــأن التجربة الإغريقيــة القديمة لواقع أسطــوري بحشد آلهته وإلهاتــه، أو التجربة الحديثــة لواقــع لا شخصي وموضوعي مادي، مختلفة كلياً عــن أي حالة نفسية ذاتية خاصة. هــذا هو السبب الذي يلزمنا بأن نحاول النظر إلى النظرة العالمية في القرون الوسطــى من الداخــل إذا كنا نريد أن نقارب نوعاً من الفهــم لتطور روحنا الثقافية. بمعنــى من المعاني، نتحــدث هنا عن عالم معين، بمقدار ما نتحــدث عن نظرة عالمية محــددة. وكما هو الوضع مــع الإغريق نجدنا متحدثين عن نظــرة عالمية دأب الغرب علــى صياغتها وقولبتهــا، وعلى نقدها وإنكارهــا، ولكن دون التخلــي عنها في أي من الأوقات.

وبالفعــل، فــإن التناقضات العميقــة الكامنة في الرؤيــة المسيحيــة نفسها – جملة التواتــرات والمفارقات الداخلية الكثيرة المتجذرة في منابع المسيحية المتعددة من ناحية وفي الطابــع الديالكتيكي للتركيبة المسيحية من ناحيــة ثانية – هي التي كان من شأنها أن تظــل دائبــة وباطراد على تعطيل نــزوع العقل المسيحــي إلى الدوغمائية التوحيدية ضامنــة، من ثم، ليس فقط حركيتها التاريخيــة العظيمة، بل وتحولها الذاتي الجذري أيضاً، مع مرور الزمن.